"إسهام المرأة في المجال العمراني والثقافي في العصر الأيوبي 570–658هـ/ 1174–1260م"

د. أحمد رضا أحمد عمر

دكتوراه في التاريخ الإسلامي

مدرس – قسم التاريخ – كلية العلوم الإنسانية – جامعة رابرين

الكلمات المفتاحية: (المرأة، العصر الأيوبي، العمران، الثقافة، الخانقاه، الرباط، المدارس، الفنادق، التعليم).

الملخص:

إن إسهامات المرأة المسلمة غطت مناح عدة في مجتمعنا الإسلامي، فقد شاركت المرأة الرجل في مجالات عديدة ، فهي في ساحات القتال تضمد وتداوي الجرحى، وفي الحث على الجهاد ضد من يريد أن يدنس تراب الوطن، وعالمة ومتعلمة في مجال العلم وخاصة العلوم الشرعية وما يتعلق بها، شاركت في تعمير أو بناء المؤسسات الدينية والتعليمية والخدمية، وهذا ينفي صفة اضطهاد الإسلام للمرأة، التي يروج لها المغرضون ضد الإسلام وأهله. وكان للنساء دور مؤثر في الجانب السياسي أيضاً.

و كان للمرأة دور متميز في العصر الأيوبي. وكانت الأميرات الأيوبيات متقدمات على غيرهن في شتى المجالات، ومن بينها مجال العلم وإعداد العلماء والخطباء والطلبة والمجاهدين الذين يغذون ساحات المعارك بالرجال المتحمسين للدفاع عن بلاد المسلمين ، فضلا عن بنائهم لعديد من المؤسسات الدينية والتعليمية و الخدمية، فهؤلاء النسوة شاركن في بناء المساجد والمدارس والمؤسسات الأخرى من أموالهن الخاصة، فكانت لهذه المؤسسات دور ريادي و متميز في الإعداد الديني والعلمي للطلبة في مختلف المدن الشامية والمصرية، وجاء هذا البحث ليسهم في إلقاء الضوء على دور هؤلاء النسوة في المجال الثقافي و بناء المؤسسات الدينية والتعليمية و الخدمية ، وسوف يركز البحث على ثقافة المرأة ودورها في الحياة العلمية في العصر الأيوبي و المؤسسات الدينية والخدمية والتعليمية التي قامت ببنائها أميرات البيت الأيوبي من الخواتين أخوات السلاطين وزوجاتهم وبناتهم، فضلا عن السيدات من غير البيت الأيوبي.

وتم تقسيم البحث إلى عدة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول : نبذة مختصرة عن دور المرأة في التاريخ الإسلامي.

المبحث الثاني : دور المرأة السياسي في العصر الأيوبي.

المبحث الثالث : ثقافة المرأة في العصر الأيوبي.

المبحث الرابع : دور المرأة في بناء المؤسسات الدينية والخدمية.

المبحث الخامس : دور المرأة في بناء المؤسسات التعليمية.

" The Contribution of Women in the Urban and Cultural in the Ayyubid Period 570-658 AH / 1174-1260 AD "

Dr. Ahmad Radha Ahmed Omer

PhD in Islamic history
-Teaching in the Department of History - Faculty of Humanities - Rapran University

Key words :
Women, Ayyubid, construction, culture, khanqah, Rabat, schools, hotels, education.

Abstract:

The contributions of Muslim women covered many especcts in our Islamic society, women have involved side by side with the man in many areas they are in the battlefields heal and cure the wounded, and in urging jihad against those who wanted to desecrate the soil of the homeland, at the same time she was highly educated in the field of science especially in the Islamic lawand what is related to it, or participated in the reconstruction of religious, educational, and service institutions. This precludes the persecution of Islam for women, promoted by biased people against Islam and its people.

The Women's influential role in the political side, too, has worked in the Department of Political Affairs on several occasions in the Ayyubid period. In additional to that both the Syria and Egypt have become a center of educational activity for women, where women who did play a role at the field of teaching or learning, although not their appear directly in schools as teachers or students , but many of them have worked in this aspect indirectly, the elders of them or Shekhat or Rawyat of the Hadetih , and be Ancin private schools for boys and for the study of modern jurisprudence and various doctrines, and some of them known for excellence in the art of a certain knowledge of the arts. The role of women to participate in the urban and service area have varied, as well as to their role in the construction of schools have worked hard at building al-zawea and khanqah and Al-hamamat of those enriched by urban relics remain in the Levantine and Egyptian cities. The contribution of women Ayyubid family had not focused in only educational institution-building, but they shared by endowments, and their contribution was clear in this area and participated in the promotion of intellectual movement in the Ayyubid period. It will search the institutions built by the princesses Ayoubidy nasty of Akhawatin sisters sultans and their wives and daughters, as well as the ladies of the non - House Ayoubi, we will look as well as talk about the institutions that has been build, and to their culture and their role in the scientific life in that period, if any, and their role as supervisor in the area focuses scientific in that period, where the busy pens and minds of danger Crusader.

The study was divided into several sections including:

Section 1: a brief on the role of women in Islamic history.
Section 2: the political role of women in the Ayyubid period
Section 3: Women's culture in the Ayyubid.
Section 4: Women's role in the building of religious and service institutions..
Section5: Women's role in the building of educational institutions.

المقدمة:

إن الدين الإسلامي أظهر مرونة كبيرة للفئة النسوية وخصص لهن مساحة واسعة من أجل القيام بدورهن كفئة مؤثرة وفعالة في المجتمع الاسلامي ، وكانت لهن الحرية التامة في مجال النهوض بالجانب الحضاري والمشاركة بدون أية قيود، ولكن نساء العائلات الحاكمة كن في المقدمة وحصلن على العديد من الفرص مقارنة بالفئة النسوية العامة هذه ساعدتهن لتقديم دوراً مهماً في المجال العمراني والتعليمي والثقافي. وكان للنساء دور مؤثر في الجانب السياسي أيضا، وقد عملن في إدارة الشؤون السياسية في مناسبات عدة، ففي العصر الأيوبي نجد المثال على ذلك ضيفة خاتون بنت السلطان العادل زوجة الملك الظاهر غازي حيث كان وليا على حفيدته، ولا يمكن أن نتغاضى عن دور شجرة الدر زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب التي تولت لفترة وجيزة أمور البلاد بعد وفاة زوجها ، وكذلك بعد مقتل توارنشاه ابن السلطان الصالح نجم الدين ايوب. لقد تأثرت النساء الأيوبيات بدور المرأة في الحياة السياسية والحضارية أسوة بالعصور التي سبقت العصر الأيوبي ولاسيما عصر الدولة الزنكية حيث انتهج الأيوبيون في العديد من مجالات النهج الزنكي وهذا التأثير لم يكن في الجانب السياسي فقط ، وإنما شمل الجانب الحضاري بصورة عامة.

ويمكن القول بأن النساء كان لهن دور في تنمية المؤسسة التعليمية في العصور الوسطى وكان للتعليم والعلماء والمدارس أثرٌ واضحٌ في تهيئة فئة من العلماء دعما للدولة في مواجهة الصليبيين والجهاد ضدهم، وفي تهيئة المسلمين من أجل الدفاع عن البلاد الإسلامية، ومن ثم بناء العديد من المؤسسات التعليمية في اغلب المدن الشامية والمصرية. ويمكن القول إن كلا من بلاد الشام ومصر أصبحتا مركزا للنشاط التعليمي للمرأة، حيث كان منهن اللواتي من إشتغلن في مجال التعليم والتعلم على الرغم من عدم ظهورهن بشكل مباشر في المدارس بوصفهما معلمات أو طالبات، إلا أن كثيرا منهن عملن في هذا الجانب بصورة غير مباشرة، وكانت منهن شيخات أو سامعات أو راويات للحديث، وكن ينشئن المدارس الخاصة للصبيان لدراسة الحديث والمذاهب الفقهية المختلفة، واشتهر بعضهن بالتفوق في فن معين من فنون المعرفة.

وقد تنوع دور المرأة في المشاركة في المجال العمراني والخدمي إذ إلى جانب دورهن في تشييد المدارس عملن بجد في بناء الزوايا والخانقاه و الحمامات وهناك الى الآن آثار للكثير من هذه المعالم العمرانية باقية في المدن الشامية والمصرية. لم يكن مساهمة نساء الأسرة الأيوبية قد تركز في بناء المؤسسات التعليمية فقط بل إنهن أوقفن عليها الأوقاف، وكانت إسهاماتهن واضحة في هذا المجال وشاركن في تشجيع الحركة الفكرية في العصر الأيوبي.

وكان للمرأة دور متميز في العصر الأيوبي مقارنة بالعصور التي سبقتها، فلما دنس الصليبيون أرض الشام ومصر وقف بوجههم الكثير من فئات المجتمع الإسلامي، فكان على المرأة أن تقف بجوار أخيها الرجل في مجال الدفاع عن الأرض والعرض، وأسهمت بشكل فاعل في هذا الجانب ، وكانت الأميرات الأيوبيات متقدمات على غيرهن في شتى المجالات، من بينها مجال العلم وإعداد العلماء والخطباء والطلبة والمجاهدين الذين يغذون ساحات المعارك بالرجال المتحمسين للدفاع عن بلاد المسلمين ، فضلا عن بنائهم للعديد من المؤسسات الدينية والتعليمية و الخدمية، فهؤلاء النسوة قد شاركن في بناء المساجد والمدارس والمؤسسات الأخرى من أموالهن الخاصة، فكانت لهذه المؤسسات دور ريادي و متميز في الإعداد الديني والعلمي للطلبة في مختلف المدن الشامية

والمصرية، ويأتى هذا البحث ليسهم في إلقاء الضوء على دور هؤلاء النسوة في المجال الثقافي و بناء المؤسسات الدينية والتعليمية و الخدمية ، وسوف يركز البحث على المؤسسات التي قامت ببنائها أميرات البيت الأيوبي من الخواتين أخوات السلاطين وزوجاتهم وبناتهم، فضلا عن السيدات من غير البيت الأيوبي ، وسنتطرق فضلا عن الحديث عن المؤسسات التي بنينها، وإلى ثقافتهن ودورهن في الحياة العلمية في العصر الأيوبي، ودورهن المشرِّف في المجال العلمي في تلك المدة، حيث انشغلت فيه الأقلام والعقول بالخطر الصليبي.

أهمية البحث : تعود أهمية البحث إلى تقديم صورة واضحة عن دور المرأة في التاريخ الإسلامي، ولاسيما مشاركتها الفعالة في الحياة السياسية و البناء الحضاري، وأهميته ومخرجاته في بلاد الشام ومصر في العصر الأيوبي ، وبيان مكانة المرأة في الحياة الثقافية ولاسيما في مجال التعلم والتعليم، ومدى العناية والاهتمام به، وكونه يمثل جانباً عظيماً للإصلاح والتغيير والتقدم، وبيان مكانة العلماء عند المرأة في ذلك العصر وأثرهم في الحياة العلمية. ومحاولة ربط أجيال الحاضر والمستقبل بالتراث والحضارة الإسلامية، ولاسيما العنصر النسوي، وذلك بإرجاع المرأة المسلمة إلى دينها وتراثها وثقافتها، مما يؤدي إلى بناء شخصيتها الإسلامية امتثالاً واقتداءً وسلوكاً. بما كان عليه النساء المعلمات والمثقفات المصلحات في تلك العصر.

الهدف من البحث : يهدف موضوع البحث إلى إلقاء الضوء على دور المرأة في الجانب الثقافي والعمراني ، لأنه سجل تاريخي مشرق و مشرف، حيث كان للجوانب السياسية والعسكرية والإدارية في التاريخ الإسلامي حظها الوافر من الدراسات والبحوث من قبل المؤرخين. أما الدراسة حول دور المرأة في الجانب الحضاري ولاسيما العمراني والعلمي والذى تشمل الجانب المشرق لأمتنا الإسلامية وإبراز دورها في في بناء الصرح الحضاري والإنساني فما زال قليل ، ويحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة. وبدافع من الشعور العلمي، تطرقت إلى هذا الموضوع لإبراز دور المرأة في بناء صرح الحضارة الإسلامية في بلاد الشام ومصر في العصر الأيوبي.

منهج البحث : إن المنهج المتبع عادة في دراسة علم التاريخ، هو منهج البحث التاريخي القائم على تحديد نقطة البحث، وتجميع المعلومات وتصنيفها وتحليلها وتحديد العلاقة بينها، ثم عرض النتائج وتفسيرها. وهذا ما قمنا به في بحثنا هذا، إذ حددت نقطة البحث وهي "إسهام المرأة في المجال الثقافي والعمراني في العصر الأيوبي"، حيث قمنا بجمع المعلومات والحقائق المتعلقة بها ثم تصنيفها بحسب موقعها من البحث ثم قمت بتحليلها والجمع بينها ثم استخلاص النتائج وتفسيرها؛ لذلك كانت عناصر البحث في الأمور الآتية: (المرأة المسلمة، دورهن في التاريخ الاسلامي، والحياة العلمية والتعليمية، مشاركتهن في بناء المؤسسات الدينية والتعليمية، علاقتهن بالعلماء ، نشاطهن الثقافي) وهذه تمثل عناصر البحث المتبعة في هذه الدراسة.

الدراسات السابقة : إن هذا الموضوع الذي أبحثه لم يكن الموضوع الأول الذي يبحث عن دور المرأة في المجال الثقافي والعمراني في العصر الأيوبي، فقد سبقني إلى دراسة جوانب منه عدد من الباحثين، ولكن بصورة مبعثرة من خلال تناولهم العصر الأيوبي أو حديثهم عن المنشآت الدينية و التعليمية و الحياة العلمية في ذاك العصر. ومحمد كرد علي في كتابه "خطط الشام" الجزء السادس تناول فيه المنشآت الدينية والتعليمية في دمشق. عبد القادر الريحاوي في كتابه "روائع التراث في دمشق". أكرم حسن العلبي في كتابه "خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة على مدى ألف عام ". وقد كتبت أمينة بيطار بحثا عن "التعليم في الشام في العصر الأيوبي". وكذلك كتب

محمد حلمي بحثا عن "الحياة العلمية في مصر والشام 520-648هـ/1127-1250م" منشور في المجلة التاريخية المصرية.

مصطلحات البحث: الحضارة، الثقافة، التعليم ، خاتون ، الأيوبيون ، الزوايا، الخانقاه، الحمامات، المكاف، الخانات ، القيساريات ، الفنادق، المدارس، المساجد، البيمارستانات، القباب، مجالس السماع، الاجازات، الفرافرة، إيوان، محراب، صحن، الشهرزوري ، جبل قاسيون ،الصالحية ، باب الفرج ، القطبية ، حارة زويلة ، العاشورية .

اجراءات البحث : تم تقسيم البحث إلى المقدمة و خمسة مباحث المبحث الأول : نبذة مختصرة عن دور المرأة في التاريخ الإسلامي. والمبحث الثاني : دور المرأة السياسي في العصر الأيوبي. و المبحث الثالث : ثقافة المرأة في العصر الأيوبي. والمبحث الرابع : دور المرأة في بناء المؤسسات الدينية والخدمية. المبحث الخامس : أهم المؤسسات التعليمية.

المصادر : اعتمد الباحث على عدة مصادر منها ابن الأثير(ت630هـ/1232م) في كتابه (الكامل في التاريخ) وأهمها ابن شداد(ت684هـ/1285م) (الاعلاق الخطيرة)، النعيمي (ت927هـ/1520م)في كتابه (الدارس في تاريخ المدارس)، والحنبلي (ت876هـ/1471م) في كتابه (شفاء القلوب في مناقب بني أيوب)، وعدد من الكتب . ز السير والتراجم. والمصادر الثانوية منها احمد بدوي (الحياة العقلية)، ومحمد كرد علي في كتابه (خطط الشام)، عبد القادر الريحاوي (روائع التراث في دمشق)، اكرم حسن العلبي (خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة)،محمد حلمي محمد (الحياة العلمية في مصر

المبحث الأول : نبذة مختصرة عن دور المرأة في التاريخ الاسلامي

عندما جاء الإسلام، حرر المرأة مما كانت تعانيه من امتهان، ومنذ عهد الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، شاركت المرأة في الحروب، وقامت بدور يتفق وطبيعتها في تضميد الجراح للمجاهدين وحثهم على الجهاد وإعداد الطعام وغير ذلك من الأعمال، فضلا عن واجباتها الأساسية والتي أهمها تربية الأطفال والأعمال المنزلية .

ولعبت المرأة المسلمة دورها ليس في الهجرة فحسب، بل كان لها دورها في مختلف المواقف والمراحل عبر تاريخنا الإسلامي بأكمله. فالمرأة المسلمة كانت موجودة في بيعة العقبة الثانية التي مهدت لهجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم). وكذلك بادرت بالهجرة كما بادر الرجل، بل وشاركت فى صنع الحدث قدر استطاعتها،. فكانت أهلاً لتؤتمن على سر هجرة الحبيب (صلى الله عليه وسلم) حيث لم يعلم بهذا السر إلا بضعة أشخاص منهم عائشة وأسماء. وكان إسهامها قدر إمكانياتها وطاقاتها وقدراتها[1].

كانت النساء في عهد الخلفاء الراشدين(11-41هـ/632-661م) يختلطن بالجمهور ويسمعن خطب الخلفاء ويحضرن المحاضرات التي كان يلقيها على بن أبي طالب وعبد الله بن العباس وغيرهما. واشتهر من نساء الاسلام في هذا العصر عائشة أم المؤمنين التي ضربت بسهم وافر في الفقه ورواية الحديث والفتيا والادب والتاريخ والنسب وقادت جند المسلمين يوم الجمل، وأختها أسماء بنت أبي بكر ، وعبد الله بن الزبير. وقد اشتهرت برواية الحديث والشجاعة والكرم، وعكرشة بنت الاطرش التي اشتركت في الحرب بين علي و معاوية. وكانت تحرض الجند على معاوية، وكانت المرأة العربية تصحب الجيش ويخصص لها مكان في المدن الحصينة والمعسكرات[2].

ومن أشهر نساء العصر الأموي (41–132هـ/661–794م) أم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك. وقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر، وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد، الذي كان يستشيرها في مهام أمور الدولة. وكانت سكينة بنت الحسين بن علي سيدة نساء عصرها ومن أظفرهن وأحسنهن أخلاقاً ، وقد اجتمع إليها يوما جرير والفرزدق وكثير وجميل ونصيب، فنقدت شعر كل منهم، ثم أجازت كلا بألف دينار. وكانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتي نبغن في الأدب وأيام العرب والنجوم، وكانت قد جاءت من المدينة إلى دمشق، وحضرت إحدى مجالس الخليفة هشام بن عبد الملك (105–125هـ/724–743م)، فأكرمها وأمر لها بمائة ألف درهم وردها إلى المدينة[3].

وفي العصر العباسي (132–656هـ/794–1258م) ازداد دور المرأة في الشؤون السياسية، فقد اعتمد الخليفة المنصور على النساء في جمع الأخبار عن أعدائه ، وساعده الاعتماد على النساء في معرفة أحوال الناس حتى عرف الولي من العدو والمداجي من المسالم.

ومن النساء العباسيات اللاتي كن لهن دور في العصر العباسي (زينب بنت سلمان) إذ عمرت طويلاً. كما مارست المرأة القضاء فقد تولت أم الخليفة (المقتدر العباسي) رئاسة محكمة استئناف بغداد ، ولما تسلم الخليفة المهدي(158–169هـ/775–785م) الخلافة ظهرت المشاركة النسائية بصورة واضحة وكان لنساء الخلفاء وأمهاتهم أثر لا يمكن إغفاله في الشؤون السياسية، وفي عصر الرشيد(170–193هـ/786–809م) زاد إقبال الناس على الجواري وتعليمهنّ ودفع الأثمان الباهظة في شرائهنّ وقد أثر ذلك على مختلف جوانب الحياة مما أدى إلى زيادة تحرّر المرأة واندفاعها للمشاركة في شؤون الحياة المختلفة، كما أن تدخل زبيدة في عصر الرشيد جعله من أزهى عصور الخلافة العباسية، أما (المأمون) (198–218هـ/813–833م) فقد اعتمد على العنصر النسائي ليس في أخذ المشورة ولكن في تسيير أعماله، ففي نزاعه مع (الأمين) كان يرسل بريده مع النساء، حيث يضعن البريد داخل أعواد منقورة من المكاف، كذلك فإن تعاون الخلفاء مع بعض النساء وإفساح المجال أمامهن للمشاركة في شؤون الدولة اثبت أن المرأة مثل الرجل قادرة على تصريف شؤون الدولة والاعتماد عليها[4].

وقد تعاظم أثر المرأة كثيرا في العصر العباسي الثاني (242–334هـ/846–907م) ويبدو أن الفساد الهائل في بلاط الخلفاء في هذا العصر انعكس بصورة سلبية على أثر المرأة خلافاً لدورها الايجابي في العصر العباسي الأول. وكان لقبيحة زوج المتوكل دور في تعاظم خطر العسكر التركي على الخلافة[5]. ولقد زاد الاعتماد على النساء في العصر العباسي الثاني في إدارة السجون التي كانت في قصور الخلفاء لحبس المتنفذين في الدولة، فقد كان معظم الوزراء الخارجين على الخلافة من المتنفذين يسلمون لزيدان قهرمانة المقتدر. وأصبح لأمهات الخلفاء وأزواجهم دور أكثر وضوحا مما كان في السابق، إذ وصل تأثير النساء على الخلفاء صورة لم يألفها المجتمع من قبل ، وذلك نتيجة الامتيازات التي حصلن عليها وضعف الخلفاء وصغر سنهم وقد تمكن هؤلاء النسوة مع وصيفاتهن ومواليهن وبعض القادة والكتاب من تشكيل طبقة خاصة شكلت عبئاً مالياً كبيراً على خزينة الدولة[6].

وفي العصر الثالث والأخير(334–656هـ/946–1258م) خضعت السلطة العباسية تماما للقوى العسكرية الناهظة من شرق الخلافة. وفي الحقبة البويهية كان أثر النساء محدوداً جداً ويعود السبب إلى أن خلفاء

تلك الحقبة لم يكن لديهم سلطة في الدولة؛ ولهذا لا تأثير بالضرورة لنسائهم. ولكن ثمة استثناءات، فقد برزت في تلك الحقبة (عابدة بنت محمد الجهنية) وكانت أديبة شاعرة فصيحة وكانت تحضر مجلس عضد الدولة. وبرزت (قهرمانة معز الدولة)، فقد كانت تعقد المحالفات مع رجال الدولة وتعين الوزراء وكذلك قهرمانة الخليفة القائم بأمر الله، (وصال)، فقد كانت تشترك في اختيار الوزراء، شأنها شأن قهرمانات العصر العباسي الثاني[7]. وفي الحقبة السلجوقية تمتعت المرأة بقسط وافر من الحرية. وكان لبعض النساء في هذا العصر تأثير على الخلفاء والسلاطين، حتى إنهن تدخلن في شؤون الدولة. ونذكر على سبيل المثال (تركان خاتون) زوجة السلطان ملكشاه التي اشتهرت بذكائها ودهائها، واتسع نفوذها حتى إنها استطاعت تحت تأثير طموحها الشخصي أن تحمل الخليفة العباسي القائم (422–467هـ/1031–1074م) على تقليد ابنها الصغير محمود السلطنة. ومن ثم تقلص دور النساء ، وذلك لتنامي الحياة الحربية بسبب المخاطر التي تهدد الدولة والتي امتدت أكثر من مائتي عام من عام 447هـ،/1055م وحتى سقوط بغداد عام 656هـ/1258م[8].

المبحث الثاني : دور المرأة السياسي في العصر الأيوبي

أسس الدولة الأيوبية السلطان صلاح الدين الأيوبي (570–658هـ/1174–1260م) بعد أن تولى وزارة مصر عام 565هـ/1169م في عهد الخليفة الفاطمي (العاضد)، وفي عام 567هـ/1171م قام بخلع هذا الخليفة منهياً بذلك وجود الدولة الفاطمية في مصر، وصار الدعاء في منابرها للخليفة العباسي المستضيء(566–576هـ/1170–1180م)، وما إن استتب له الأمر حتى تطلع إلى بلاد الشام وكانت فيها الدولة الزنكية تحت حكم نور الدين محمود بن زنكي الملقب بالشهيد، فبدأ بينهما الجفاء حتى توفي هذا الأخير عام 569هـ/1174م فأعلن صلاح الدين الأيوبي استقلاله بمصر، ثم استولى على بلاد الشام الداخلية عدا الساحل في العام نفسه بعد أن هزم إسماعيل بن نور الدين وكان هذا صبياً صغيراً، وفي عام 571هـ/1175م أصدر الخليفة العباسي أمراً يقضي بتولي صلاح الدين سلطنة مصر والمغرب والنوبة وغربي الجزيرة العربية وفلسطين وسورية الوسطى، وبعد عشر سنوات استطاع صلاح الدين أن يخضع الموصل وبعض أمراء العراق، ثم تفرغ لتحرير البلاد من الصليبيين[9].

ان ظهور الأيوبيين في الساحة السياسية في الشرق الأوسط يُعد نقلة نوعية في الجانب السياسي والحضاري في التاريخ الإسلامي، فقد أعاد الأيوبيون إلى الدولة الإسلامية هيبتها، حيث تحققت لها الوحدة التي ترسخت منذ أيام الدولة الزنكية حيث ساد الازدهار والعمران والتطور الحضاري واستتب الأمن بعد القضاء على الفاطميين567هـ/1171م ، وفي العصر الأيوبي أصبحت بلاد الشام ومصر مركزاً مهمًّا للحياة السياسية والحضارية لكن أهم التطورات التي جرت كانت في العمران الذي غدا سمة من سمات ذلك العصر فاهتم العامة والخاصة ولاسيما المرأة ببناء المنشآت الدفاعية وتوسيع المدينة ، كما انتشرت المنشآت الاقتصادية والاجتماعية "كالخانات والقيساريات والفنادق والحمامات والسبل " أما المباني الثقافية، فقد جاء الاهتمام بها بشكل أكبر فكثرت المدارس والمساجد للعمل على نشر المعرفة والعلم والتعريف بالمذهب السني كما ازدادت البيمارستانات والخانقاوات والربط، كذلك بدأ الاهتمام بالأضرحة الفخمة ذات القباب بشكل خاص وألحقوها في كثير من الأحيان بالمدارس والمساجد التي كان بناؤها أصلاً يتم لوضع ضريح الباني فيها لنيل الثواب حتى بعد الموت[10].

وقد أحجمت المصادر العربية كثيرا عن تناول دور المرأة في المجتمع الإسلامي بصورة عامة و بلاد الشام و مصر بصورة خاصة، واكتفت بإيراد معلومات متفرقة عن أشهر النساء أو بعض الحالات، إلا أننا استطعنا أن نجمع شتات تلك المعلومات المتفرقة في بطون المصادر وأن نثبت أن للمرأة دوراً بارزاً في الجانب السياسي والحضاري جنباً إلى جنب مع الرجل، وإنها استطاعت أن تسطر أسمى معاني المثابرة والجهد والشجاعة، خاصة في بلاد الشام و مصر في العصر الايوبي، والتي كانت تعتبر منطقة التماس و جهاد ضد أعداء الدين، وان المجتمع في تلك المنطقة كان قائم على بناء الحضارة وارساء دعائم الثقافة الاسلامية، وهذا الأمر يخص أفراد المجتمع جميعا بضمنهم النساء، وبالفعل فقد أثبتت المرأة أن لها دورا كبيرا وحضورا مميزا.

لقد مارست المرأة في العصر الأيوبي الحياة السياسية، وكان لها دور بارز في ادارة الدولة، وتدبير شؤون الحكم، وأموره المختلفة، وجوانبه المتعددة، وأعظم هذه الأدوار توليها الحكم.

لم يقتصر نفوذ المرأة في العصر الأيوبي في امور الحكم، ومشاركتها في تدبير شؤون الدولة، على توليها السلطنة، وممارستها لذلك بشكل مباشر كما هو الحال عند ضيفة خاتون و شجر الدر، وإنما نجدها تمارس هذا التنفذ وتشارك في ادارة السلطنة بوقوفها الى جانب السلطان وإسداء النصح والمشورة له، وخاصة إذا كانت تتصف بالحنكة والدهاء وحسن التدبير، بل وأكثر من ذلك ربما تمتعت المرأة بشخصية قوية وملكت نفوذا قويا فتمكنت بذلك من بسط نفوذها على السلطان، وتسيطر عن طريقه على أمور الدولة، فلا يقطع أمرا الا بمشورتها كما هو الحال لبعض زوجات السلاطين الحكم من خلال أزواجهن، والامهات من خلال ابنائهن، وكذلك الجواري قد مارسن الحكم وتدخلن في شؤون الدولة بقدر حظوتهن عند السلاطين.

ومن الأمثلة على دور المرأة في الجانب السياسي في تلك الحقبة تولي (ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح الدين) الحكم في مدينة حلب عام 634هـ/1236م – حيث ولدت بقلعة حلب عام 581هـ/1186م، لقبت بالستر العالي. تزوجت من الملك الظاهر ابن صلاح الدين عام609هـ/1212م[11]، تولى حلب ولدها العزيز محمد إلى وفاته عام 634هـ/1236م. وولي عهده يوسف عمره ثمانية سنوات، فأصبحت والدته (ضيفة خاتون) وصيّه عليه، فحكمت السيدة ضيفة خاتون حلب، تصرف الملوك بملكهم. حتى وفاتها[12]، وقال عنها الصفدي : " صفية خاتون الصاحبة بنت الملك العادل الكبير زوج الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدين صاحب حلب وأم العزيز صاحب حلب وجدة الناصر صاحب الشام ، كانت ملكة جليلة عاقلة توفيت في جمادى الأولى عام أربعين وستمائة بحلب وولادتها عام إحدى وثمانين وخمسمائة ، وكان الظاهر قد تزوج قبلها أختها غازية ولما مات ولدها العزيز تصرفت تصرف السلاطين ونهضت بالملك أتم النهوض بعدل وشفقة وبذل وصدقة أزالت المظالم والمكوس في جميع بلاد حلب وكانت تؤثر الفقراء وتحمل إليهم الصدقات الكثيرة وغلقت لموتها أبواب حلب ثلاثة أيام ، ثم أشهد الناصر صلاح الدين على نفسه بالبلوغ وله يومئذ ثلاثة عشر عاماً فأمر ونهى وجلس في دار"[13]. واعترف بها ملوك بني أيوب في دمشق والقاهرة وحمص وحماه ملكة على حلب .كانت ملكة عادلة في الرعية،كثيرة الإحسان،والشفقة بهم،أزالت الكثير من المظالم والضرائب،تؤثر الفقراء والزهاد والعلماء،وأهل الدين، اشتهرت بحسن السياسة والقيادة وتصدت للصليبيين والسلاجقة وغيرهم. وقد شهدت بلاد الشام في عهد حكم (ضيفة خاتون) متغيرات سياسية وعسكرية، فعلى الصعيد السياسي، قطعت علاقتها السياسية مع أخيها الملك الكامل في مصر؛ وذلك لرفض الأخير وصيتها وحكمها لمدينة حلب، وعدت ذلك تدخلا في

شؤونها السياسية، وعمدت إلى التحالف مع أخيها الملك الأشرف الذي تولى حمك دمشق في عام 626هـ/1228م ومع حكام مدن حمص وحماة لمواجهة تهديدات الملك الكامل[14] .

لقد أخفق تحالف ضيفة خاتون بسبب وفاة أخيها الملك الأشرف في عام 635هـ/1237م، مما شجع الملك الكامل على الزحف بجيوشه من مصر إلى بلاد الشام، واستطاع السيطرة على مدينة دمشق، وعزل حاكمها الملك الصالح اسماعيل الذي حكم المدينة بعد وفاة الملك الأشرف[15]. ولم يوقف تقدم الملك الكامل الى مدينة حلب إلا وفاته عام 635هـ/1237م، وانتهزت ضيفة خاتون تلك الفرصة، فجهزت جيشا واستطاعت محاصرة مدينة حماة، وذلك لتعاون حاكمها الملك المظفر بن الملك المنصور مع الملك الكامل ضدها، واستولت على مدينة معرة النعمان وضمتها الى ادارة حلب[16]. وبذلك أصبحت ضيفة خاتون عماد البيت الأيوبي من خلال سياستها المتوازنة مع الأطراف الأيوبية في بلاد الشام ومصر على حد سواء، فقد قصدها رسول ابن أخيها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل الذي تولى الحكم في مصر عام 637هـ/1239م حاملا رسالة يقول فيها،" البلاد كلها بحكمك وان شئت ارسال نائب يتسلم هذه البلاد وغيرها فأرسليه لأسلم إليه ما تأمرين بتسلمه"[17]. كما أبدى الملك (الجواد بن مودود) حاكم دمشق امتثاله لأوامرها وانتماءه إليها، واستمرت ضيفة خاتون في حكم الشام حتى وفاتها، حيث خلفها في الحكم حفيدها الملك الناصر الثاني[18]. حيث توفيت (ضيفة خاتون) عام 640هـ/1242م ودفنت بقلعة حلب[19].

المثال الثاني عن دور المرأة في الجانب السياسي في العصر الأيوبي يتمثل في دور شجرة الدر وهي أول سلطانة لمصر زوجة أحد السلاطين الأيوبيين و كانت أرمينية الأصل، وقيل تركية صاحبة دهاء إلى جانب كونها ذكية وجميلة، أهداها الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٥٦-٦٤٠هـ/١٢٥٨-١٢٤٢م) إلى الملك الصالح نجم الدين في عهد والده السلطان الكامل فأنجبت منه خليل الذي مات صغيرا وأحبها ورافقته في رحلته إلى الشرق[20]. وقد توفى زوجها الملك الصالح لمرضه في عام (٦٤٧هـ/١٢٤٩م)، أثناء الحملة الصليبية السابعة على مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، ملقيا على عاتق شجرة الدر عبئاً ثقيلا، وكانت شجرة الدر امرأة عالية الهمة وعلى مستوى المسؤولية، فأخفت وفاة زوجها حرصا على الروح المعنوية لجندها وشعبها ، هذا التصرف كان سبباً في الإبقاء على معنويات الجيش، وفي استمراره في مقاومة الحملة الصليبية، والانتصار عليها في نهاية المطاف، ولم يكن ذلك غريبا عليها فقد كان لها في حياة زوجها الملك الصالح غالب تدبير الديار المصرية، وكذلك في مرضه وبعد موته فدبرت الأمور على أكمل وجه . وقد استقدمت شجرة الدر تورانشاه ابن زوجها الملك الصالح أيوب ليتولى الأمر بعد أبيه، غير أن تورانشاه وقف منها موقفا غير حسن، وأعرض عن مماليك أبيه، وجعل أمر البلاد إلى أصحابه الذين قدموا معه، وأرسل إلى شجرة الدر يتهددها، ويطالب بأموال أبيه، مما دفع شجرة الدر إلى التآمر عليه لينتهي الأمر بقتله على أيدي المماليك البحرية[21] . وبعد مقتل تورانشاه أضحى العرش شاغراً، فوقع الاختيار على شجرة الدر لتولي السلطنة، فباشرت التواقيع، وأخذ يدعى لها على المنابر وسك اسمها على النقود،، وصار عز الدين أيبك أتابكا مسؤولا عن شجرة الدر والقائد العام للجيش وكان ذلك في ٣ صفر عام (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م)، ولقبت "الملكة عصمت الدين شجرة الدر والستر العالي والدة الخليل" .وقد أخذت شجرة الدر السلطانة تتقرب إلى الخاصة والعامة لتنال رضاهم ، ثم دخلت في مفاوضات مع الصليبيين انتهت إلى إعادة دمياط للمسلمين، وفك الأسرى، وإطلاق سراح لويس التاسع مقابل مال مقدر[22].

ولكن توليتها سلطانة لمصر لم يلق تأييدا من الأمراء الأيوبيين بالشام الذين كانوا يعتقدون أنهم أصحاب الحق الشرعي في حكم مصر والشام، فضلا عن مؤيدي توران شاه وتأليب الرأي العام ضدها في كل من بلاد الشام ومصر. وبعد تولي شجرة الدر للسلطة تمردت الإمارات المختلفة واستقلت معلنة رفض التبعية للسلطانة الجديدة، فانقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين، واستقلال الأمراء الأيوبيين في دمشق وحلب وانفصالها عن مصر قد زاد من سوء الوضع وتدهوره، بل إن الخليفة العباسي المستعصم بالله وقف ضدها عندما طلبوا منه تأييد حكمها بقوله: (إن كانت الرجال عدمت عندكم فاعلمونا حتى نسير لكم رجلاً)، وشعر المسلمون كذلك بحرج شديد في أن يلي أمرهم امرأة، وقد أخرجت شجر الدر الجميع من هذا المأزق عندما تزوجت المعز عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم بعد بلوغ أهل مصر قدوم التتار[23]، فتكون شجرة الدر بذلك قد نجحت في صد الحملة الصليبية من جهة، وهيأت البلاد لمواجهة التتار بتنازلها عن العرش من جهة ثانية، كما حسمت النزاع القائم بتولي العرش امرأة من جهة ثالثة. وكما عدّ بعض المؤرخين شجرة الدر أولى سلاطين المماليك، رأت فئة أخرى أنها آخر السلاطين الأيوبيين، وأن المعز عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك[24].

المبحث الثالث : ثقافة المرأة في العصر الأيوبي

كان للمرأة المسلمة في التاريخ الإسلامي إسهام كبير في إغناء الحركة العلمية والفكرية والأدبية، وفي إقامة أسس الحضارة الإسلامية، فقد نبغ في مختلف مراحل التاريخ الإسلامي الآلاف من العالمات المبرزات والمتفوقات في أنواع العلوم وفروع المعرفة وحقول الثقافة الإسلامية، وقد ترجم الحافظ ابن حجر في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة)، لثلاث وأربعين وخمسمائة وألف امرأة، منهن الفقيهات والمحدثات والأديبات[25]. وذكر كل من الإمام النووي في كتابه (تهذيب الأسماء واللغات) [26]، والخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد) [27]، والسخاوي في كتابه(الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) [28]، وغيرهم ممن صنف كتب الطبقات والتراجم، تراجم مستفيضة لنساء عالمات في الحديث والفقه والتفسير وأديبات وشاعرات.

ومنذ عهد النبوة، كان للمرأة المسلمة شغف بطلب العلم والنبوغ فيه، فأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، كانت من أعلم الناس بالقرآن والفرائض والشعر وأيام العرب والتاريخ). قال هشام بن عروة يروي عن أبيه :« :ما رأيت أحداً أعلم بفقهٍ ولا بشعرٍ من عائشة»[29]، والعالمة الجليلة السيدة فاطمة بنت الحسين بن علي، كانت من أنبغ نساء عصرها وأكثرهن علماً وورعاً، وقد اعتمد على روايتها كل من ابن اسحاق وابن هشام في تدوين السيرة النبوية[30]، وهناك الكثير من الشخصيات النسوية قد أسهمن في المجال التعليمي قبل العصر الأيوبي لا يسعنا أن نشير إليهن لكثرتهن.

لقد تركت المرأة في مصر و بلاد الشام خلال عصر الأيوبي أثرا بارزا في الحياة العلمية والحضارية، ولاسيما فيما يتعلق بالعلوم الدينية ومنها علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، حيث شاركت المرأه العلماء وأسهمت معهم في إغناء الفكر الإسلامي وقد تتلمذ على أيدي النساء الكثير من مشاهير العلماء والمفكرين والمؤرخين في عصر دولة الايوبية في مصر وبلاد الشام، وقد كان تعليم البنات منتشرا في العصر الأيوبي، فقد تلقين تعليمهن في المراكز العلمية العديدة، وبلغت العناية بتعليمهن احضار الكثير منهن للسماع في مجالس العلم، منذ بلوغهن الخامسة من العمر، ومنهن من أحضرن الى مجالس السماع منذ الصغر، مما يلفت النظر أن الكثير من البنات المشاركات في مجالس السماع كن من أقارب المسمع، أو المصنف، أو من أقارب كتاب السماع، أو

من اقارب الرجال المشاركين في مجالس السماع. لقد قرأت البنات القرآن، وتلته بعضهن بالقراءات السبع، كما حفظ بعضهن الشاطبية. وسمعن الحديث، واشتغلن به (صحاحه، ومسانيده، وأجزائه، ومشيخاته، وأماليه، ورحلن في سبيله. وحدثن. وقرأن الفقه، والشعر، وحصلن على الإجازات)[31].

وقد درست المرأة في المراكز العلمية العديدة، وسمع عليهن طالبو العلم، وأخذوا عنهن، ورحلوا إليهن، لقد تصدر بعضهن في مجالس السماع، وسمع عليهن العديد من مشهوري العلماء من امثال ابن عساكر، والمنذري، وابن حجر العسقلاني، وغيرهم وقامت المرأة بدور ملموس في مظاهر الحياة الثقافية في بلاد الشام ومصر في العصر الأيوبي، وأسهمت بنشاط ظاهر في حركة التعليم آنذاك، فقد تتلمذ عليها الكثيرون من طالبي العلم وطالباته، وتزاحموا للأخذ عنها، ولهذا فليس غريبا أن نرى كتبا كثيرة خصصت للحديث عن النساء، وتعليمهن، واشعارهن، مثل : أخبار النساء لابن الجوزي، ونزهة الجلساء في أشعار النساء للسيوطي،والروضة الغناء في تواريخ النساء ليلسين خيرا الله العمري، وغيرها ، وقد تنوعت أماكن التعليم التي كانت المرأة تعلم فيها، أو كانت طالبات العلم تتعلم فيها، بين المنزل، والمسجد، والمدرسة، والزاوية، والرباط، وغيرهن، ومن المراكز الأخرى، أو قمن ببنائها[32].

ونالت المرأة حظا من العمل التعليمي، وان لم تتسلم وظيفة التدريس في المدارس. ولعبت بعض النساء دورا لا يقل أهمية عما قام به الكثير من العلماء والفقهاء، وتتلمذ على أيديهن الكثير من الطلبة ، و الشيخ الجليل الحافظ بن عساكر كان عدد شيوخه من النساء حوالي خمس وثمانين امرأة. ولم يكن هناك غضاضة في أن يتلقى طالب العلم علمه على يدي امرأة ، بل يبدو من ثنايا التراجم التي أوردها المؤرخ ابن عساكر لبعض نساء عصره وخاصة من أخذ عنهن، مدى تقديره لهن[33]، فيقول: " أخبرتنا العالمة ملكة بنت داود.... وأجازت لي جميع حديثا..."[34]، كما وصف زمرد بنت جاولي بن عبد الله بانها مكرمة لاهل العلم. ويبدو أن النساء اللائي اشتهرن بالعلم والدين في هذه الفترة نشأن في بيوت علم و دين. وإذا لم تكن كذلك وكان أهلها راغبون في تعليمها، فإنهم يهيئون لها فرصة تلقي العلم عن بعض فقهاء العصر أو فقيهاته. من ذلك ما يذكره ابن عساكر في ترجمته لزمرد خاتون بنت جاولي بن عبد الله، أنها سمعت الحديث من الفقهاء : " كانت امرأة محبة للخير مكرمة لأهل العلم سمعت الحديث من الفقيهين أبي الحسن ابن قيس وأبي الفتح نصر الله بن محمد وأبي طالب بن أبي عقيل الصوري واستنسخت الكتب وقرأت القرآن على ابي محمد بن طاوس وأبي بكر القرطبي"[35].

ومنهن من اتخذت منازلهن أماكن اشتغال بالعلم والتعلم، ويذكر ابن عساكر أنه قرأ على كثير من النساء العالمات في منازلهن، ويوضح ذلك قوله : " أخبرتنا أم أبيها فاطمة بنت علي بن حسين، في منزلها، بقراءتي عليها..."[36]، ومن ذلك أن الشيخة المحدثة فاطمة بنت الملك المحسن أحمد بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت661هـ/1263م) قد سمع عليها بمنزلها، جوار المدرسة العادلية بدمشق، جزاءاً في الحديث[37]، وكذلك سمع ابنه (تقي الدين عمر أرسلان) الحديث منها في المجالس[38].

ومنهن من يحضرن الدروس من وراء الستار، ففي عام 628هـ/1231م درس في المدرسة الصاحبية الشيخ الناصح الحنبلي، ابو الفرج عبد الرحمن بن نجم ابن عبد الوهاب بن ابي الفرج الشيرازي الحنبلي (ت634هـ/1237م)، وحضرت ربيعة خاتون بنت نجم الدين ايوب، اخت السلطان صلاح الدين (ت643هـ/1245م) التي بنت المدرسة الصاحبية[39] وراء الستر، أول درس ألقي في هذه المدرسة التي أنشأتها

في صالحية دمشق، وكانت عالمة "لها تواليف ومجموعات"[40]. لقد كان طالبو العلم يرحلون في سبيل العلم، ويأخذون عن العديد من الشيخات العالمات، حيث يذكر المنذري، وهو يتحدث عن ست الكتبة نعمة ابنة على بن يحيى بن علي الطراح (604هـ/1207) : " لقيت ست الكتبة بدمشق، وسمعت منها "[41].

ويتبين للمتتبع دور المرأة في التعليم جليا من خلال النظر في تراجم العديد من أشهر العلماء الذين سمعوا من الشيخات عالمات، وقرأوا عليهن، وأخذوا عنهن، وحصلوا على الإجازات منهن. وقد أشرنا فيما سبق الى ابن عساكر أنه أخذ عن الكثيرات من الشيخات العالمات اللواتي تحدث عنهن في تاريخه. منهن من قرأ عليهن، أو سمع منهن، أو كتب عنهن، أو حدث. والحافظ المنذري، سمع من النساء، وكتب عنهن، وحصل على الاجازات منهن، عدا ما أخذه من شيخة الكتبة كما أشرنا اليها فيما سبق ، فإنه سمع من الشيخة كريمة بنت الوهاب الزبيرية الدمشقية. وأجازت له من دمشق الشيخة زينب بنت ابراهيم بن محمد بن احمد بن اسماعيل القيسي (ت610هـ/1213م)، والشيخة رابعة بنت احمد بن محمد بن قدامة المقدسية(ت620هـ/1223م)، وابنة أخيها الشيخة آمنة بنت محمد بن قدامة المقدسية (ت631هـ/1234م)، وغيرهن من الشيخات العالمات، وقد أورد المنذري عددا ضخما من العالمات المسلمات في كتابه[42]. وهذا يبين الدور الذي لعبته المرأة المسلمة في الدراسة والتدريس، ورعاية العلم، والاهتمام به، وروايته، والعمل على نشره.

كانت المرأة تتعلم موضوعات عديدة، فقد تعلمت علوما شتى، شملت العلوم الدينية، والعلوم اللغوية والأدبية، والتاريخ، وغيرها، ومن ذلك أنها تعلمت القرآن، الحديث، والشعر، والنحو، والخط، والتاريخ، وغيرها من العلوم ، ثم علَّمت المرأة تلك العلوم أيضا، كانت الشيخة رابعة بنت احمد المقدسي حافظة للقرآن الكريم، تعلم النساء، ولها اجتهاد في فعل الخير، ويقول المنذري عنها :" ولنا منها اجازة كتبت بها الينا من دمشق غير مرة". وكانت الشيخة آمنة ابنة الفقيه أبي عمر محمد المقدسية قد حفظت القرآن الكريم، وذكر المنذري: " وكانت تلقن النساء والجواري، ولنا منها إجازة كتبت لنا عنها من دمشق"[43].

وكان للمرأة نصيب في مختلف الأنشطة العلمية في العصر الأيوبي أشرنا الى بعضها فيما مضى، ومنهن من اشتغلن بالحديث النبوي، وعنين به عناية كبيرة. وتظهر مشاركتهن في هذا المجال أكثر من ظهورها في غيره من المجالات. فقد سمعن، وأسمعن، وحضرن مجالس السماع، وعقدن مجالسه، وروين الحديث، وقد أقبلن على ذلك بشكل جلي. وتتحدث المصادر عن الكثير من النساء الشيخات المحدثات. ويبدو أن الكثير من النساء اللواتي اشتغلن بالحديث كن يتحلين بالصدق والدقة في الرواية، حيث يقول الذهبي :" وما عملت من النساء من اتهمت، ولا من تركوها"[44]. لقد كانت المرأة تتعلم الحديث الشريف، وتعلمه، وقد برزت العديد من المحدثات في العصر الأيوبي. وتبوأت كثيرات منهن مكانة علمية مرموقة لاسيما في علم الحديث. ولتبيان أثر المرأة في التعليم في هذا المجال، نختار عددا من المحدثات اللواتي يمكن أن يمثلن هذه الظاهرة، للحديث عن الدور الذي قمن به، وتبين البرنامج الدراسي، والكتب، والأجزاء الحديثية التي كن يتعلمنها، أو يعلمنها. فهاهي ذي الشهدة الكاتبة تكسب شهرة فائقة لتخصصها في دراسة الحديث وعلومه حتى أصبحت تعد من كبار رواته وحفاظه، وست الكتبة نعمة بنت علي اهتمت بدراسة الحديث كذلك وتخصصت منه في كتاب الشمائل للترمذي[45].

كانت أم الفضل كريمة ابنة عبد الوهاب بن علي بن الخضر القرشية الزبيرية الدمشقية، المعروفة ببنت الحبجق محدثة جليلة، وكانت توصف بأنها مسندة الشام، وكانت قد سمعت من والدها، كما سمعت من العديد من

العلماء، وروت عنهم. وأجاز لها العديد من العلماء. ثم أسمعت، وسمع منها، وقرىء عليها. ويذكر ابو شامة المقدسي أنه سمع منها بقراءة أبي شامة نفسه، وبقراءة غيره. مما سمع منها بقراءته أو بقراءة غيره صحيح البخاري وغيره من كتب الحديث[46]، وأجزائه، وأماليه. ومنها كتاب الأشراف لابن ابي دنيا. ومسند عبد الله بن عمر، وامالي ابن مردويه، وصحيفة همام بن منبه، الفوائد المنتقاه والغرائب الحسان من حديث ابي بكر محمد الابهري، وغيرها. وقد سمع منها جماعة من الحفاظ منهم ابو الحجاج يوسف بن خليل الدمشقي، محمد بن يوسف البرزالي، وغيرهما[47]. وابن الصابوني أنه سمع منها كثيرا، وأخذ منها علما غزيرا، وذكر أنه : " سمعت منها كثيرا وأخذت عنها علما غزيرا وكانت من النساء الصالحات إذا قرىء عليها الحديث وجاء ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام ترفع صوتها بالصلاة عليه وتسيل دموعها عند ذكره شوقا إليه مولدها"[48].

وكانت المحدثة زينب بنت مكي بن علي بن كامل الحراني(624-688هـ/1227-1289م)، قد سمعت على العديد من العلماء والعالمات، وكانت ست الكتبة من شيخاتها اللواتي سمعت عليهن. ومما سمعته عدد من الأجزاء والآمالي في الحديث، وسمعت كتاب القضاء لابن شريح، وكتاب الأشربة للإمام أحمد بن حنبل. وأجاز لها علماء وعالمات، ومن العالمات اللواتي أجزن لها الشيخة عفيفة الفارقانية. وروت الحديث، وسمع منها كثيرون من طالبي العلم وطالباته. وقد ازدحم على بابها بسفح قاسيون كثير من طالبي العلم والحديث، فسمعوا منها، وقراوا عليها كتاب، وأجزاء في الحديث. وقد قضت عمرها في طلب الحديث، والروايه، والصلاح، والعبادة، وتلاوة القران الكريم[49].

المبحث الرابع : دور المرأة في بناء المؤسسات الدينية والخدمية

شهدت بلاد الشام و مصر في العصر الأيوبي توسعاً عمرانياً ونشاطاً معمارياً كبيراً. وقد تمثل التوسع العمراني في ظهور أحياء ومناطق جديدة في مدنها، وانتشرت فيها المساجد وأسواق البيمارستانات، تنتشر فيها المدارس والمنشآت الثقافية الدينية انتشاراً ملفتاً للنظر. وقد نشطت حركة الإعمار والبناء في كل من دمشق والقاهرة وحلب نشاطاً كبيراً، فبنيت المؤسسات الاجتماعية كدار العدل، والبيمارستانات والحمامات والأسبلة، والمؤسسات الثقافية الدينية: كالمساجد والمدارس والخوانق والترب، ولاقى بناء المدارس في تلك الفترة اهتماماً خاصاً في هذه المدينة بالذات. وكذلك بنيت المؤسسات التجارية كالخانات والقيساريات، ولاقت المنشآت الدفاعية كالسور والقلعة والأبواب اهتماماً كبيراً. كالمساجد والخوانق، وأتوا بمؤسسة جديدة هي المدرسة، وقد بنيت في عهدهم العديد من المدارس، وقد شاركت المرأة في هذه النهضة مشاركة فعالة[50].

لم نلتمس أي أثر في المصادر الإسلامية عن بناء المرأة لجامع أو مسجد أو ماشابه ذلك، أو قيامها بترميمها، ولكن النساء شاركن بفعالية في بناء الخوانق والرباطات والترب و المدارس والحمامات، ويجب أن ننوه الى أن مدينة دمشق تأتي في مقدمة المدن الأخرى في المجال العمراني للعنصر النسوي، وهذا يعود إلى الدور الكبير الذي لعبته نساء الأسرة الأيوبية في إغناء دمشق بالمنشآت الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وقد اشار ابن جبير عند زيارته لدمشق إلى هذه المشاركة النسائية في العصر الأيوبي، والدور الراقي لأميرات البيت الأيوبي وإسهامهن في المجال الثقافي والعمراني حيث قال: " ومن النساء الخواتين ذوات الأقدار من تأمر ببناء مسجد أو رباط أو مدرسة وتنفق فيها الأموال الواسعة وتعين لها من مالها الأوقاف "[51].

وفي البداية نشير إلى أهم التربة التي بنتها المرأة في المدن الشامية والمصرية ففي عام 577هـ/1181م أمرت عصمة الدين خاتون ابنة معين الدين أنر زوجة صلاح الدين عصمة خاتون ببناء تربة في الصالحية من الغرب عرفت بالتربة الخاتونية، وهي بانية المدرسة الخاتونية الجوانية. وقد توفيت عام 581هـ/ 1185م ودفنت بها. وما تزال هذه التربة موجودة[52]. وفي الصالحية من الشرق، أنشأت فاطمة بنت السنقر الطفداسي التربة الفاطمية، التي توفيت عام 606هـ/1209م ودفنت بها، وقد دثرت. وفي عام 616هـ/1219م، أنشأتها الحاجة ست العراق ابنة الأشجاع الملكي الناصري، لولدها محمد التربة الستية في الصالحية وقد دثرت[53]. وفي عام 635هـ/1237م بنيت التربة الكاملية في جوار الجامع الكبير من شماليه، ولها شباك يطل عليه ، وهي تربة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب،وهي ما تزال موجودة[54]، وفي الصالحية، قبلي جسر كحيل. أنشأت الخاتون أرغوان الحافظية التربة الحافظية، عتيقة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وقد سميت الحافظية لتربيتها الملك الحافظ أرسلان شاه صاحب جعبر، وقد توفيت عام 648هـ/1250م[55].والتربة ما تزال باقية حتى يومنا هذا.

وكذلك شاركت المرأة في بناء الرباطات، وهي بيوت الصوفية، حيث أنشأت عذراء خاتون بنت شاهنشاه بن أيوب رباط عذراء خاتون داخل باب النصر. وهي بانية المدرسة العذراوية. وقد دثر هذا الرباط. وفي عام 599هـ/1202م تم بناء رباط بنت الدفين في المدرسة الفلكية التي توجد بحارة الأفتريس داخل بابي الفرج والفراديس. والمدرسة الفلكية بنيت من قبل فلك الدين سليمان أخي الملك العادل أبي بكر لأمه والمتوفى عام 599هـ/1202م. وبنت فاطمة بنت السلار بانية التربة الفاطمية رباط بنت السلار داخل باب السلامة، وهو منسوب إليها. وقد دثر هذا الرباط. وفي عام 633هـ/1235م تم بناء رباط صفية القلعية بالقرب من دار العقيقي التي أصبحت في العهد المملوكي المدرسة الظاهرية. ذكره البرزالي في حوادث عام633هـ/1235م. وقد دثر[56]. وأنشأت تركان خاتون بانية المدرسة الأتابكية، رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل، ولا يعرف مكانه اليوم، وبنت زهرة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر رباطا بقرب القلعة من الطرف الشرقي عرف (رباط زهرة خاتون)، وقد دثر هذا الرباط[57].

وظهرت في المدن الإسلامية ولاسيما في العصر الأيوبي منشآت خدمية واجتماعية وتعبدية خاصة بالنساء كانت تحقق لها الرعاية الاجتماعية وتوفر لها خدمات في مناحي عدة، فقد وجدت دورا كانت ملاذاً ومقاماً للسيدات والأرامل والمطلقات والمسنات ممن لا عائل لهن وممن قعد بهن الزمن، توفر لهن حياة كريمة شريفة من إقامة ومأكل وملبس ومشرب صيانة لهن من الانحراف، مع مواظبتهن على العبادات وتوافر الرعاية والإشراف الدائم، انتشرت هذه الدور في المدن الإسلامية. وفي العصر الأيوبي وبالتحديد في مدينة دمشق أنشأت فاطمة الأيوبية عام 650هـ/1252م دورا للنساء الفقيرات وكتبت فوق بابه " وأوقفت هذه الخانكاه الرباط فاطمة بنت الملك العادل محمد بن الكامل بن أبي بكر بن أيوب على المقيمات بها، وإظهاراً للصلوات الخمس والمبيت فيها"[58].

وانتشرت أربطة النساء في المدن المصرية، فيذكر المقريزي عن هذه المنشآت، أنها كانت دورًا يطلق على كل منها رباط، وأنها على هيئة ما كانت عليه بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يكون فيها العجائز والأرامل والعابدات، وكانت لها الجرايات، ومن أشهر الأربطة التي كانت مخصصة للنساء، رباط الأشراف، أنشأه

أبو بكر محمد بن علي المارداني وأوقفه على نساء الأشراف المنكوبات من اللواتي أعوزهن النصير وقعد بهن الحظ ، وشرط أن تكون في الرباط شيخة عالمة تقية جليلة تشرف على من فيه وتتولى أمورهن ؛ فتخفف من بؤسهن وترشدهن وتعلمهن وتفقهن في الدين[59].

وفي القاهرة بنت شجر الدر قبة عرفت باسمها، وإن كان تاريخ بناء هذه القبة غير معروف ولكن يمتد داخلها أزرار من نقش كتابي ذكر فيه اسم شجر الدر مصحوبا بلقب " عصمة الدنيا والدين" و " أم الملك المنصور خليل" مما يؤكد أن هذا النص التاريخي نقش في المدة التي مرت بين موت الملك المعظم تورانشاه في 19 المحرم من عام 648 من مايو عام 1250، وبين ارتقاء الملك المعز ايبك عرش السلطنة في 29 ربيع الثاني عام 648هـ/1250م الحادي والثلاثين من يوليو عام 1250م، مما يؤكد أن بناء القبة قد بدأ وكمل قبل نقش هذا الازرار وبالتالي قبل موت الملك تورانشاه، أي قبل نهاية العصر الأيوبي[60].

ومن المؤسسات الخدمية الحمامات، فقد تركت المرأة في العصر الأيوبي بصمتها في هذا المجال، بالرغم من أن بناء هذه المؤسسات من قبل المرأة في تلك العصر لم تكن بشكل واسع، وكذلك اقتصرت فقط على المدن الشامية. من أهمها حمام عذراء، بانيته هي عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب بانية المدرسة العذراوية، وهو لصيق المدرسة العذراوية من الغرب، وقد دثر هذا الحمام[61]. وهناك حمام ست الشام، لصيق البيمارستان النوري من الجهة الجنوبية الغربية، أنشأته ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين، وهو شمالي المدرسة التي أنشأتها هناك. وقد دثر[62]، وكذلك أسهمت المرأة في بناء الخانات والفنادق، ومن الأمثلة على ذلك الفندق الذي بنته عصمة الدين بنت معين الدين أنر زوجة صلاح الدين المتوفاة عام 581هـ/1185م. وعرف بفندق عصمة الدين، ولم يعد هذا الفندق موجوداً[63] .

المبحث الخامس : دور المرأة في بناء المؤسسات التعليمية

امتازت العمارة الاسلامية في العصر الأيوبي بالوفرة والتنوع، وتعتبر البناء التعليمي والتي تشمل الخانقاوات والمدارس من ارقى ما وصل إليه فن العمارة في ذلك العصر، وشاركت المرأة في العصر الأيوبي بشكل واسع في هذه النهضة المعمارية. وتعتبر الخانقاه (وهي بيوت للصوفية) أحد أهم المؤسسات التعليمية في تلك العصر وقد شاركت المرأة في بنائها، ومن أشهرها الخانقاه الخاتونية في دمشق، بنتها عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر بانية المدرسة الخاتونية الجوانية، والتربة الخاتونية في الصالحية ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانياس، ودفنت بتربتها في سفح قاسيون قريبا من قباب الجراكسة ووكانت لها أوقاف كثيرة. والخانقاه القصاعية، بالقصاعين، داخل باب الجابية، أنشأتها فاطمة خاتون ابنة خطلجي، ولا نعرف من هي ولا تاريخ وفاتها[64]. والخانقاه الحسامية التي تقع خارج دمشق، بالشرف القبلي. منسوبة لحسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، بانيتها هي أمه ست الشام أخت صلاح الدين[65]. وانشأت خانقاه الصاحبة فاطمة خاتون بنت الملك الكامل بالقطيعة وتوفيت المذكورة في عام وفي عام 656هـ/1209م، خانقاه أنشأتها بنت صاحب شيرز سابق الدين عثمان قبالة دورهم، و خانقاه بدرب البنات أنشأتها زمرد خاتون وأختها بنتا حسام الدين لاجين عمر بن آقبوري وأمهما أخت صلاح الدين يوسف، وخانقاه أنشأتها بنت والي قوص، وخانقاه أنشأتها الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبي بكر أم الملك العزيز محمد صاحب حلب داخل باب أربعين تجاه مسجد الشيخ

الحافظ عبد الرحمان بن الأستاذ. وخانقاه في حلب عرفت بـ (الكاملية) أنشأتها زوجة علاء الدين بن أبي الرجاء[66].

وخانقاه الفرافرة تقع في محلة الفرافرة في مدينة حلب، أنشأته ضيفة خاتون الملك العادل سيف الدين أبي بكر عام 634هـ/1237م في عهد وصيتها على السلطان الناصر، ويعلو المدخل لوحة كتابة تاريخية تذكر أن هذا البناء شيد في أيام السلطان الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد في عام 634هـ/1237م. ولهذا عرفت بالناصرية لأن على بابها مكتوب أنها أنشئت زمن الناصر يوسف بن أيوب ، تزين مدخل الخانقاه مقرصنة ذات ثلاث حطات، تعلوها زخارف هندسية بديعة، فيها إيوان عظيم ومحراب بديع، وهي مائلة إلى الاندثار، يلي المدخل دهليز منكسر يؤدي إلى صحن مربع الشكل، تتوسطه بركة ماء مثمنة ، وفي الجهة الشرقية من الصحن دهليز يؤدي إلى فسحة مربعة يحيط بها إيوان صغير وثلاث غرف[67].

امتاز العصر الأيوبي بكثرة المدارس ولاسيما في المدن الرئيسية كدمشق وحلب والقاهرة وغيرها من المدن الشامية والمصرية. والتي أنشأئها السلاطين والملوك و أمراء وعلماء وتجار وغيرهم ممن وجد في نفسه القدرة العلمية أو المادية، ويجب أن ننوه الى الدور الكبير الذي قامت به المرأة ولاسيما أميرات البيت الأيوبي وأخواتهم وزوجاتهم ومن ينتسبن إليهم في مجال إنشاء المؤسسات التعليمية في هذا العصر، الذين تركوا بصمتهم في إثراء الحياة العلمية والثقافية في العصر الأيوبي. وكان لبعض أميرات البيت الايوبي إسهاماتهن الواضحة في تشييد المدارس، وكان الدافع وراء تلك الإسهامات على ما يبدو السير على النهج السائد آنذاك في تقوية المذاهب الأربعة أو للإفاضة عليهن بالمزيد من صفات المجد والصلاح والتقوى فضلا عن بعض المظاهر الأخرى التي كانت ملازمه لذلك العصر كالتفاخر والمباهاة بين فئات المجتمع أو لتجنب المصادرة عن طريق القيام بأعمال خيرية، وغير ذلك.

ولنبدء بالمدارس التي أقامتها المرأة بدمشق خلال العصر الايوبي، حيث أنشأت ست الشام زمردة خاتون بنت نجم الدين أخت الملوك وعمتهم عام 582هـ/1186م المدرسة التى عرفت بمدرسة الشامية الكبرى (البرانية) وكانت مخصصة لفقه الشافعي[68]، وكانت تعرف أيضا بالمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها الأمير حسام الدين بن محمد بن لاجين من زوجها الأول، عهدت إليه ست الشام ببناء المدرسة وكانت بمحلة تدعى (العونية) منطقة العقيبة. ويلحق بالمدرسة (تربة) وهو عبارة عن مكان لدفن الموتى تعلوه قبة ضخمة ثلاثية العقود تغطي مساحة المقبرة[69]، وتقع المدرسة شمال المدرسة الشبلية البرانية خارج سور دمشق جنوب الشرف القبلي المرجة. وقد عينت الست فيها خيرة علماء عصرها واشترطت عليهم ألا يدرسوا بمدارس أخرى لضمان تفرغهم وتلبية حاجة الطلبة من الاهتمام الكافي والمناسب ، وكان أول من درس بها من العلماء الإمام علامة الفقه الشافعي ابن الصلاح عثمان بن عبدالرحمن، الكوردي الشهرزوري (ت643هـ/1245م) ، والقاضي شرف الدين بن زين القضاة وهو من أشهر قضاة عصره ، والقاضي ابن الحنبلي وغيرهم من العلماء ، وقد أوقفت الست زمردة خاتون على المدرسة أوقافاً ضخمة عبارة عن إيراد قرى بدمشق ، وقد تنازلت عنها للمدرسة والتربة أمام قاضي قضاة دمشق زكي الدين بحضور 40 شاهداً من أعيان دمشق على أنها أوقفت أملاكها كلها للمدرسة وبهذا الضمان من التمويل للمدرسة استمرت بالعطاء طيلة العصر الأيوبي والمملوكي فخرجت خيرة العلماء والطلبة منها. توفيت السيدة زمردة

خاتون بنت نجم الدين يوم الجمعة الموافق للسادس عشر من ذي القعدة عام 616هـ/1219م حيث خرجت دمشق لتشيعها بالآلاف وهم يرددون الأدعية لها بجنازة فريدة ، إذ لم تشيع امرأة قبلها بمثل ما شيعت به خاتون ست الشام ؛ لأنها قامت بإعمار المدارس والاهتمام بالأدب والأدباء كما بذلت جهوداً كبيرة لتحفيظ القرآن الكريم ودفنت بتربتها جانب ولدها حسام الدين[70]. لقد كانت هذه المدرسة من كبريات المدارس في ذلك العصر ويمكننا القول بأنها جامعة كبيرة لما لها من تأثير ثقافي كبير لكثرة مدرسيها وزخم خريجيها من الطلبة وأبهة عمرانية وأكثر أوقافاً لإيراداتها المالية الضخمة[71]. قبلي البيمارستان النوري ولصيقه أنشأت الخاتون ست الشام بانية المدرسة الشامية البرانية، المدرسة الشامية الجوانية وذلك في عام 628هـ/1231م، وأوقفتها على الشافعية. درس بها من عظماء الشافعية ابن الصلاح. ويذكر النعيمي الأوقاف التي أوقفتها الخاتون ست الشام على هذه المدرسة وكانت عدة قرى منها جرمانا[72] من بيت لهيا، وعدة أسهم من ضيعة تعرف بالتينة والضيعة المعروفة بمجدل القرية ونصف ضيعة تعرف بمجدل السويداء في نواحي دمشق[73]. وقد خربت هذه المدرسة ولم يبق فيها سوى بابها وواجهتها الحجرية واتخذت دارا[74].

أما ربيعة خاتون فقد قامت ببناء المدرسة الصاحبية (فقه حنبلي) وهي من الأسرة الأيوبية، بنت نجم الدين أيوب بن شادي كانت زوجة الأمير مسعود بن معين الدين أنر حاكم دمشق ، ثم بعد وفاته تزوجت من مظفر الدين كوكبوري وانتقلت إلى أربيل عدة سنوات حتى توفي عام 628هـ/1231م . وعادت إلى دمشق وسكنت بيت والدها نجم الدين أيوب المعروف بدار العقيقي حتى وفاتها عام 643هـ/1245م . وقد تجاوزت الثمانين عاماً[75]. قامت السيدة العالمة أمة اللطيف في خدمة ربيعة خاتون عند عودتها من أربيل، ويقال: إنها هي التي أشارت عليها بإنشاء المدرسة التي عرفت بالصاحبية، فأنشأتها السيدة ربيعة خاتون[76]، وتقع المدرسة إلى الغرب من المدرسة الركنية في محلة ركن الدين، في سفح جبل قاسيون، بالصالحية من جهة الشرق[77]، وأوقفتها على الحنابلة؛ وأسندت التدريس فيها إلى الناصح بن الحنبلي في عام 628هـ/1231م، حيث كان وقفها قرية جبة عسال والبستان الذي تحت المدرسة والطاحونة وحكورة ، ثم أوقفت ربيعة خاتون أوقافاً كثيرة على المدارس في وجه الخير[78]. والمدرسة ماتزال قائمة إلى اليوم في حي الأكراد – زينبية[79] وكانت السيدة ربيعة خاتون أوقفت قرية جبة عسال عليها. ومن أشهر من درس فيها الشيخ ناصح الدين الحنبلي 554 –634هـ/1149–1237م من أهالي شيراز فقيه حنبلي من حفاظ القرآن الكريم ورواة الحديث، وقد عينته السيدة ربيعة خاتون وحضرت حفل تعيينه من وراء ستار توفي عام 643هـ/1245م، ودفن في مقبرة الصالحية بدمشق ، ومن المدرسين تقي الدين الواسطي الحنبلي الذي كان علامة وقته في الحديث وتوفي عام 692هـ/1293م [80].

أما عصمت الدين خاتون فإنها أنشأت المدرسة الخاتونية الجوانية،وهي بنت معين الدين أُنر حاكم دمشق قبل أن يضمها صلاح الدين إلى دولته فقد كانت الخاتون زوجة نور الدين زنكي ثم تزوجها السلطان صلاح الدين عام 572هـ/1176م من أعف النساء وأجلهن لها أمر نافذ في الخير صاحبة بر وصدقات خصصت من أموالها رواتب للفقراء والمحتاجين. محبة للعلم والأدب توفيت عام581هـ/1185م فقد بنت المدرسة الخاتونية عام 573هـ/1177م على المذهب الإمام الحنفي بدمشق بمحلة كانت تعرف بحجر الذهب، وقد اهتمت بالمدرسة حيث تكفلت بالتمويل المادي عن طريق الوقف وتسخير إيرادات الوقف للمدرسين والطلبة[81]. توالى على التدريس في هذه المدرسة مجموعه من أكابر علماء الفقه الحنفي ومن أبرزهم القاضي عز الدين الكردي السنجاري ومحمد

بن أبي الكرم السنجاري الذي تولى منصب قاضي قضاة دمشق للأحناف حتى وفاته عام 646هـ/1248م، ثم ولده كمال الدين عبد اللطيف السنجاري المتوفى عام 659هـ/1261م[82].

واشتركت أميرتين أيوبيتين هما بابا خاتون بنت شيركوه بن أيوب عم السلطان صلاح الدين ، وزهرة خاتون بنت العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح الدين ببناء المدرسة العادلية الصغرى, كانت المدرسة داراً للأمير الأيوبي عبدان الفلكي فاشترتها زهرة خاتون مع حمام ابن موسك. ثم ملكت الدار والحمام لبابا خاتون بنت شيركوه مع عدة قرى " قرية كامد والحصة من قرية برقوم من أعمال حلب والحصة من قرية بيت الدير من الأصغار والحمام والمعروف بابن موسك"[83]، ثم أعادت بابا خاتون هذه الممتلكات إلى زهرة خاتون وقفا شريطة أن تحول الدار إلى مدرسة وتوقف إيرادات القرى عليها إضافة لإيراد الحمام وأن تضم المدرسة مدفناً خاصاً وسكناً للطلبة مع تعيين معلمين ومعيدين وإماما ومؤذنا وبوابا وقيما وعشرين فقيهاً، وذلك عام 655هـ/1257م[84]، وجاء في نقش مدون على باب المدرسة " أمر بإنشاء هذه الدار المباركة، المولى الجليلة الخاتون عصمة الدين زهراء خاتون ابنة السلطان العادل..... ووقفت على فقهاء الشافعية، واقامة الصلوات الخمس بها، وعلى ما يقرأ القرآن الكريم، ورباطا لسكن خدامها وعتقائها ومن بعدهم على الفقراء والمساكين، وكان الفراغ من بنائها عام ستمائة وست وخمسين للهجرة، ويتولي معتقها الحاج عزيز الدين بن عبدالله"[85]. وتقع المدرسة داخل باب الفرج، شرقي باب القلعة الشرقي، قبالة المدرسة الدماغية والعمادية[86].

أما الخاتون عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب فإنها قامت ببناء المدرسة العذراوية، وهذه السيدة كانت زوجة الأمير الزنكي الحاجب مبارك أمير صفد وقد أنجبت منه ولدين هما الأمير سعد الدين مسعود الذي تولى إمارة صفد بعد والده والأمير بدر الدين ممدود شحنة دمشق ، وقد كان هذان الأميران من خيرة أمراء السلطان صلاح الدين ولهما مواقف جريئة معه ، كانت الخاتون من ربات البر والإحسان أنشأت المدرسة العذراوية بدمشق داخل باب النصر[87]. ووقفت تلك المدرسة على تدريس المذهبين الشافعي والحنفي[88]. وتولى التدريس فيها خيرة علماء دمشق ، وكان فخر الدين بن عساكر اول من القى الدرس بها[89]، كذلك كانت الخاتون عذراء قد اتخذت داراً خاصة بمثابة مدرسة للنساء لتلقي العلوم الدينية والوعظ ولها رباط للصوفية،توفيت الخاتون عذراء 10 محرم عام 593هـ/1197م، ودفنت في مدرستها[90].

أما المدرسة الماردانية فقد أنشأتها السيدة عزيزة الدين أحشا خاتون بنت قطب الدين زنكي[91] صاحب ماردين، وزوجة السلطان الملك المعظم عيسى، وأوقفها في عام 624هـ/1224م، للحنفية. وأوقفت للمدرسة بستاناً جوار الجسر الأبيض وبستاناً آخر جوار المدرسة وثلاثة حوانيت، والحواكير جوارها، وهذا الوقف كان قد جاء في وثيقة عثر عليها في عام 820هـ/1417م، نصت هذه الوصية على أن لا يكون المدرس الذي يعين لها مدرساً بغيرها من المدارس[92]، ومما يدل على مقدار عناية منشئتها بالمدرسة أنها خصصت لها كثيراً من الأوقاف التي تؤمن استمرار هذه المدرسة ، بدأت ببنائها عام 610هـ/1213م بدمشق الجسر الأبيض، الصالحية واكتمل عام 624هـ/1227م، استقدمت الخاتون لها خيرة علماء المذهب الحنفي كابن التركماني والصدر الخلاطي وغيرهما[93].

وانشأت الخاتون حظى الخير بنت إبراهيم والدة الملك الأيوبي فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب المتوفي عام 578هـ/1182م المدرسة الفرخشاهية، والتي تقع في مدخل دمشق الغربي بزقاق الصخر مقابل التكية السليمانية. كانت تقوم المدرسة الفرخشاهية. وإلى جانبها التربة العائدة لشاهنشاه الأيوبي. وأوقفها على المذهب الحنفي والشافعي عام 626هـ/1224م[94]. وتقع المدرسة في الطرف الشمالي غربي المدينة القديمة مطلة على نهر بردى وشارع بيروت[95].

أما تركان خاتون بنت عز الدين مسعود الأتابكية زوجة الملك الأشرف مظفر الدين موسى الأيوبي فقد أنشأت بدمشق المدرسة الأتابكية في حي الصالحية شرق دار الحديث الأشرفية. أوقفتها على أصحاب المذهب الشافعي. درَّس فيها كبار علماء الشافعية منهم الشيخ الإسكندري و المارداني الكوردي والشيخ الارموي الشافعي والشيخ جلال الدين القزويني وكمال الدين البارزي وغيرهم من العلماء[96]، والمدرسة الآن جامع وقد استمر التدريس فيها حسب ما وصلت إليه من بحث حتى نهايات القرن العاشر الهجري ، وتوفيت تركان خاتون عام640هـ/1242م[97].

وأنشأت خديجة خاتون بنت الملك المعظم عيسى بن العادل بن نجم الدين في عام 654هـ/1256م المدرسة المرشدية، وأوقفت لها مزرعة بالقابون وبساتين بالصالحية.تقع المدرسة في الصالحية شرق دار الحديث الأشرفية و الأتابكية[98]. وتعد المرشدية من المدارس التي بقي منها إلى يومنا هذا غرفة من الحجر وضريح مجصص ومئذنة. وكانت في الأصل على شكل حرم مقبب فيه منافذ إلى الشمال ينفذ منها باب إلى التربة الملحقة بها كما ينفذ إلى قاعة التدريس من جهة الغرب فكانت الغرفة المتبقية المقببة أشبه بممر يؤدي إلى أقسام وملحقات المدرسة الأخرى[99]. وتقع المدرسة المرشدية في حي الصالحية بين المدارس لصيق دار الحديث الأشرفية البرانية من الغرب، وكانت قريبة من نهر يطلق عليه نهر يزيد، وللمدرسة المرشدية منارة متميزة وفريدة من نوعها في دمشق، وتربة دفنت فيها منشئتها[100] ، ومن أهم شيوخ المدرسة ، القاضي صدر الدين احمد بن شهاب الدين علي الكاشي، ومن ثم تولي التدريس بها صدر الدين ابراهيم بن عقبة، ثم عاد إليها القاضي صدر الدين بن علي[101]، وبعدها تولى التدريس بها قاضي القضاة شمس الدين أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن عطا ابن جبير بن جابر، ومن ثم تولى التدريس بها وهيب الأذرعي الحنفي المعروف بالقاضي عبد الله، ودرس بها قاضي القضاة صدر الدين علي البصروي[102].

وأنشأت السيدة العالمة أمة اللطيف بنت ناصح الحنفي زوجة الملك الأشرف الأيوبي ملك حمص المدرسة العالمة غربي سفح قاسيون، وأوقفتها على الحنابلة، تلك السيدة التي رافقت قبل زواجها السيدة ربيعة خاتون , وأحبتها، واستفادت من رفقتها أموالاً جمة، وهي التي شجعتها ببناء المدرسة الصاحبية، وكانت في خدمتها ومستشارتها حيث كان تستشيرها في أمور عدة، وبعد وفاة ربيعة خاتون حبست بقلعة دمشق نحو ثلاث سنين وصدرت أموالها , وأطلقت وتزوجت الأشرف، وانتقلا إلى الرحبة، توفيت عام 653هـ/1255م. كانت سيدة فاضلة صالحة عفيفة، لقبت السيدة أمة اللطيف بالعالمة لما اشتهرت به من علم ذكر أن لها مؤلفات لم أقف عليها , أوقفت على المدرسة عدة بساتين بمكان يقال له: جسر بطة والغيضة وبستان آخر[103].

وهناك نساء من غير البيت الأيوبي أسهمن ببناء المؤسسات التعليمية في دمشق، منهم الست فاطمة بنت السلار التي انشأت المدرسة الميطورية في عام 629هـ/1232م، في الصالحية من الشرق، أوقفتها للحنفية، وقد دثرت[104]، : " وأول من درس بها الدرس الشيخ حميد الدين السمرقندي... بعده ولده محيي الدين إلى أن انتقل إلى الديار المصرية ومات بها وذكر عنه الدرس شمس الدين الحسين القونوي الخطيب بالقلعة المنصورة بدمشق ثم وليها محيي الدين أحمد بن عقبة"[105]. وكذلك أنشأت عائشة زوجة شجاع الدين بن الدماغ العادلي الذي كان من الأصدقاء المقربين للملك العادل أبي بكر بن أيوب، المدرسة الدماغية داخل باب الفرج، وكانت هذه المدرسة بالأصل دارا له فجعلتها زوجته مدرسة للشافعية والحنفية، عام 638هـ/1240م[106] ووقفها بقصر اللباد شرقي مقري ثمانية أسهم من أربعة وعشرين سهما وهي الثلث من المزرعة الدماغية والحصة من رجم الحيات والحصة من حمام إسرائيل خارج دمشق والحصة بدير سلمان من المرج ومزرعة شرخوب عند قصر أم حكيم شرقي قرية عراد وقبلي شقحب، وأول من درس بها من الشافعية قاضي القضاة شمس الدين الخويي المشهور، ثم موفق الدين الخويي بشرط الموافقة وكان الناظر عليها ثم شهاب الدين ابن قاضي القضاة شمس الدين الخويي ، ثم كمال الدين التفليسي ثم عماد الدين بن يونس الموصلي مستمرا بها[107]. وأنشأت خاتون بنت ظهير الدين شومان، المدرسة الشومانية قرب الخواصين، داخل دمشق. وقد سموها المدرسة الطيبة فيما بعد تيمنا، وهي للشافعية[108]. وأول من درس بها الشيخ تاج الدين عبد الرحمن ثم من بعده أخوه شرف الدين وهو مستمر بها[109]، ولا تذكر المصادر عام الإنشاء ولا تاريخ وفاة البانية، ولم يبق لهذه المدرسة أثر.

أما في مدينة حلب فقد أنشأت الملكة ضيفة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين مدرسة اشتهرت بمدرسة الفردوس وأوقفتها للشافعية، لتكون مدرسة وجامعا وتربة ورباطا خانقاه ومكاناً لتجمع الجيش في عام 633هـ/1235م، وأوقفت عليها أوقافا كثيرة ورتبت فيها خلقا من القراء والفقهاء والصوفية. وأول من درس فيها شمس الدين أحمد بن الزبير الخابوري[110]، وتقع المدرسة خارج باب المقام، في محلة الفردوس، على بعد 650 مترا من الجهة الجنوبية الغربية لباب المقام في المنطقة الجنوبية الغربية من مقامات حلب. ويتفق معظم الباحثين في تاريخ العمارة الإسلامية، على أن مدرسة الفردوس تعد من أهم آثار العمارة الاسلامية هندسة وتخطيطا، وتتألف هذه المدرسة من صحن تحيط به أروقة قائمة على أعمدة من ثلاث جهات ، أما الجهة الرابعة فيوجد ايوان مسقوف بمجموعة من القباب القصيرة دون رقاب ،أما الوسطى فهي مرتفعة ويتوسط الصحن بركة مثمنة الشكل تتخللها تجاويف داخلية ، وتعد هذه المدرسة أوَّل مجمع بني ليس في حلب فقط وانما في العالم الاسلامي، فهي تضم بين أرجائها أبنية متعددة الوظائف، وبنيت هذه المدرسة في العصر الذهبي لازدهار المدارس الايوبية، ولها جدران مرتفعة مبنية بالحجارة الهرقلية، تحجب ضجيج الشارع عن طلاب المدرسة. ومن العناصر المعمارية النفيسة في المدرسة المحراب المصنوع من الرخام المجزع متعدد الالوان المرصوف على اشكال هندسية متقنة الصنع وهو من اندر المحاريب في العالم الإسلامي[111]. والمدرسة ما تزال قائمة إلى يومنا هذا ومحافظة على رونقها المعماري بقبابها وبركها و أعمدتها، وخشبها المحفور بدقة متناهية ومحرابها الرخامي البديع الذي يُعد من أجمل المحاريب في العالم الإسلامي.

وفي مصر أسهمت المرأة في المجال المعماري في العصر الأيوبي ولكن لم يكن يماثل حجم المؤسسات التعليمية التي انشأتها المرأة في المدن الشامية ، ومن المدارس التي انشأتها المرأة في القاهرة المدارس القطبية التي أنشأتها عصمت الدين خاتون مؤنسة القطبية ابنة السلطان الملك العادل الأيوبي خير شاهد على تلك الإسهامات حيث أنشأت عام 604هـ/ 1208م المدرسة القطبية الأولى في بداية حارة زويلة في مدينة القاهرة، وجعلتها وقفاً على الفقهاء الشافعية وفيها متصدر للقراءات[112].

وأنشأت المدرسة القطبية الثانية في الحارة ذاتها ولكن يبدو أنها اكتملت وافتتحت بعد وفاتها، فالمقريزي يذكر بشأنها أنها تركت مالا جزيلا و أوصت ببناء مدرسة فبنيت بموجب وصيتها، ورتب فيها درسين أحدهما للشافعية والآخر للحنفية[113]، وهذا يعني انها اقدمت على تعيين مدرسين ومعيدين لكل مذهب . ومن ثم ازداد أعداد المدرسين والطلبة وتزاحم الطلاب على المدرسين، حتى أصبح هناك منافسة في الحصول على السكن الداخلي[114]. وأقامت السيدة عاشوراء بنت ساروح الأسدي زوجة ايازكوج الاسدي المار الذكر بشراء أحد الدور التي كانت تعود ملكيتها للطبيب اليهودي هبة الله بن جميع (ت594هـ/1197م)، بحارة زويلة في مدينة القاهرة وحولتها الى مدرسة لتدريس الفقه الحنفي عرفت بالمدرسة العاشورية، وكانت مغلقة معظم الأحيان ولا تفتح الا قليلاً ويعزو المقريزي سبب ذلك الى وجودها في زقاق : " لا يسكنها إلا اليهود ومن يقرب منهم بالنسب"[115].

نتائج البحث:

ان الدارس لتاريخ النشاط الثقافي والعمراني في العصر الأيوبي يستدل على أن الكثير من النساء اشتغلن بالعلم فقد أسهمن بشكل فعال في النهضة العلمية ودعم الحركة الثقافية والنشاط السياسي والنهضة المعمارية، ولاسيما بناء المؤسسات التعليمية ؛ لأن بناء هذه المؤسسات كان نوعاً من أنواع الدعم لسياسة الدولة وهي بذلك تكون قد شاركت جدياً في عملية التطور لحضاري بمختلف أشكاله اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً ليس هذا فحسب، بل قدمت لنا صورة موضوعية تعرفنا من خلالها على المرأة في مجتمعنا الإسلامي قديماً كإنسانة لم تكن تعيش بمعزل عن تطورات مجتمعها ولم تكن هامشية أو مهانة بل على العكس كانت تحظى بمكانة لائقة استطاعت أن تشارك في شتى الميادين حتى مجال العمارة والبناء الذي اختص به الرجال منذ القديم ونافسته في ذلك، أي لم تكن نصف المجتمع المشلول أو السلبي الذي يعيش على سواعد الرجال كانت كالطود الشامخ في جميع المجالات وجديرة لتكون كالرجال.

وقد عملت المرأة في إدارة الشؤون السياسية في مناسبات عدة في العصر الأيوبي والمثال على ذلك ضيفة خاتون بنت السلطان العادل زوجة الملك الظاهر غازي حيث كان وليا على حفيدته، ولا يمكن أن نتغاضى عن دور شجرة الدر زوجة السلطان الصالح نجم الدين أيوب التي تولت لفترة وجيزة أمور البلاد بعد وفاة زوجها وكذلك بعد مقتل توارنشاه بن السلطان الصالح نجم الدين أيوب.

إن الدين الإسلامي أظهر مرونة كبيرة للفئة النسوية وخصص لهن مساحة واسعة من أجل القيام بدورهن كفئة مؤثرة وفعالة في المجتمع الإسلامي ، وكانت لهن الحرية التامة في مجال النهوض بالجانب الحضاري والمشاركة بدون أية قيود، ولكن نساء العائلات الحاكمة كن في المقدمة وحصلن على العديد من الفرص مقارنة بالفئة النسوية العامة هذه ساعدتهن لتقديم دور مهم في المجال العمراني والتعليمي والثقافي.

لقد تأثرت النساء الأيوبيات بدور المرأة في الحياة السياسية والحضارية أسوة بالعصور التي سبقت العصر الأيوبي ولاسيما عصر الدولة الزنكية حيث انتهج الأيوبيون في العديد من المجالات النهج الزنكي ، وهذا التأثير لم يكن في الجانب السياسي فقط وانما شمل الجانب الحضاري بصور عامة ، وقد تنوع دور المرأة في المشاركة في المجال العمراني والخدمي فإلى جانب دورهن في تشييد المدارس عملن بجد في بناء الزوايا والخانقاوات و الحمامات وهناك الى الآن آثار للكثير من هذه المعالم العمرانية باقية في المدن الشامية والمصرية ، ولم يكن إسهام نساء الأسرة الأيوبية قد تركز في بناء المؤسسات التعليمية فقط بل إنهن أوقفن عليها الأوقاف، وكانت إسهاماتهن واضحة في هذا المجال وشاركن في تشجيع الحركة الفكرية في العصر الأيوبي.

الهوامش:

([1]) علي حسن الخربوطلي، الحضارة العربية الإسلامية،ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994، ص129.

([2]) حسن ابراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ط14، مكتبة النهضة، القاهرة، 1996، ج 1،ص444.

([3]) نفسه، ج 1،ص445.

([4]) نفسه، ج 2،ص351-352.

([5]) محمود اسماعيل، تاريخ الحضارة العربية الإسلامية،ط2، كتبة الفلاح، الكويت، 1990،ص183.

([6]) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني،ط2، دار المعارف، القاهرة، د.ت،ص73-74.

([7]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج7/ص 206-207.

([8]) حسن،تاريخ الاسلام، ج4،ص601

([9]) سعيد عبد الفتاح عاشور،الايوبيون والمماليك في مصر والشام،ط1،دار النهضة العلمية، القاهرة،1996،ص139.

([10]) احمد مختار العبادي، في تاريخ الايوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1995، ص 94-102 ؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك،ط1،دار المعرفة الجامعية، القاهرة،2000،ص71-74.

([11]) جمال الدين محمد بن سالم ابن واصل، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، ت: جمال الدين الشيال، دار احياء التراث القديم، القاهرة،1957، ج3/ص213.

([12]) نفس المصدر، ج5/ص114-118.

([13]) صلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي، الوافي بالوفيات، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/2000م،ج16/ص190.

([14]) أبو القاسم كمال الدين عمر ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، ت: سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية،بيروت، 1968، ج3/225-226 ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4/ص257، ج5/ ص121-124.

([15]) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5/ ص137، 150-153.

([16]) ابن العديم، زبدة حلب، ج3/ص236-238.

([17]) نفس المصدر، ج3/ص241-242.

([18]) ابن العديم، زبدة حلب، ج3/ص244 ؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج5/ ص312-313.

([19]) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج16/ص190.

([20]) ابو محمد عبدالله بن سعد اليافعي، المرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعد من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1413هـ،1993م.

([21]) تقي الدين احمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ت: محمد عبد القادر عطا، ط/1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م،ج1/ص457-461 ؛ ابو المحاسن جمال الدين ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت، ج6/ص373.

([22]) المقريزي، السلوك، ج1/ص461-463.

([23]) نفس المصدر، ج1/ص463-464.

([24]) العبادي، في تاريخ الايوبيين والمماليك،ص109-111.

([25]) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: علي محمد البجاوي،ط1، دار الجيل،بيروت،1992،ج1/ص64،40-65، 108-109

([26]) ينظر : محي الدين بن شرف النووي، هذيب الأسماء واللغات، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، ط1، دار الفكر، بيروت،1996.

([27]) أحمد بن علي أبو بكر الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت.

([28]) شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.د،ت.

([29]) أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط1، مكتبة الرشد، الرياض،1409،، ج6/ص239.

([30]) خير الدين الزركلي، الاعلام، ط3، بيروت، د.ن، 1969،ج5/ص130.

([31]) ماجد عرسان الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين،ط/3،دار القلم للنشر والتوزيع،دبي، 2002م، ص309-312.

([32]) نفس المرجع، ص312-318.

([33]) امينة بيطار، التعليم في الشام في العصر الايوبي، مجلة تاريخ العرب والعالم :س6،ع1984،7م،ص62-63.

([34]) علي بن حسن ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق : محب الدين ابي سعيد عمر بن العمري، دار الفكر،بيروت، 1995، ج70/ص127.

([35]) نفس المصدر، ج69/ص167.

([36]) نفس المصدر، ج70/ص34.

([37]) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت: عمر عبد السلام تدمرى، ط/1، دار الكتاب العربي، بيروت،1987م،ج50/ص309 ؛ ابو الفلاح عبدالحي ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناءوط، ط/1، دار بن كثير، دمشق،1985م،ج5/ص362.

([38]) مرتضى الزبيدي، ترويج القلوب في ذكر ملوك بني ايوب، تحقيق : صلاح الدين المنجد، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1969، ص98.

([39]) محمد بن طولون الصالحي، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق : محمد احمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980، ق1/ص239-240.

([40]) احمد بن ابراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، ت: ناظم رشيد، دار الحرية، بغداد،1979، ص230؛ عبد القادر بن محمد النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ت:ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1989م،ج2/ص55، ص62-64.

([41]) زكي الدين ابو محمد المنذري، التكملة لوفيات النقلة، تحقيق : بشار عواد معروف، ط3،مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984، مج2/ص130.

([42]) ينظر : نفس المصدر، مج2/ص272.

([43]) ينظر : نفس المصدر، مج3/ص109، 371.

([44]) شمس الدين محمد بن احمد الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995، ج7/ص465.

([45]) محمد حلمي، الحياة العلمية في مصر والشام 520-648هـ/1127-1250م، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مج1958،7م،ص20.

([46]) شهاب الدين ابي محمد عبد الرحمن ابي شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع (المعروف بالذيل على الروضتين)، تحقيق : محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974، ص173.

([47]) شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، سير اعلام النبلاء، ت: شعيب الأرناؤوط , محمد نعيم العرقسوسي، ط/9، مؤسسة الرسالة، بيروت،1413،ج23/ص93.

([48]) جمال الدين ابي حامد محمد بن علي الصابوني، تكملة اكمال الاكمال في الانساب والاسماء والالقاب، ت: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد،1957م،ج1/ص106.

([49]) عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان، دار الكتاب الاسلامي، القاهرة، 1993،ج4/ص207-208 ؛ عمر رضا كحالة، أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت، ج2/ص16-19.

([50]) عاشور،الأيوبيون والمماليك،ص139- 144، 155- 156، 167-172.

([51]) محمد بن احمد ابن جبير، تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار (المشهور برحلة ابن جبير)، ت: محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب، بيروت،د.ت،ص193.

([52]) ابو محمد شهاب الدين عبدالرحمن اسماعيل ابو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ت: إبراهيم الزيبق، ط/1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ/ 1997م،ج3/ص243 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية، طبعة دار السعادة بمصر، د.ت،ج12/ص317؛ طولون، القلائد،ص 55 -60، 209، 258.

([53]) ابن طولون، القلائد، ص334-336.

([54]) أبو شامة، ذيل الروضتين،ص166 ؛ النعيمي، الدارس،ج2/ص212.

([55]) ابن كثير، البداية والنهاية،ج13/ص180 ؛ ابن طولون، القلائد،ص 217 ؛ النعيمي، الدارس،ج2/ص189.

([56]) عز الدين محمد بن علي ابن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة،ت: دومنيك سورديل، المعهد الفرنسي بدمشق،دمشق،1953م،ج2-ق1/ص195-196؛ النعيمي،الدارس،ج1/ص431،ج2/ص161-162،184،194 ؛ بدران عبد القادر،منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ت: زهير الشاويش، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت،1985م،ص137،296.

([57]) ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج2- ق1/ص195-196؛ النعيمي، الدارس،ج2/ص151.

([58]) محمد راغب الطباخ ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط2، دار القلم العربي، حلب ،1989، ج4/ص417؛ تريفة احمد عثمان البرزنجي ، اسهامات العلماء الاكراد في بناء الحضارة الاسلامية ، ط1، دار الكتب العلمية،بيروت ، 2010، ص171.

([59]) تقي الدين احمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (المشهور بالخطط المقريزية)، القاهرة،مكتبة الثقافة الدينية، د.ت،ج2/ص454.

([60]) حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك،ط1،دار المعرفة الجامعية، القاهرة،2000،ص71-74.

([61]) أحمد بن زفر الاربلي، مدارس دمشق ودور حديثها وخوانكها وربطها وجوامعها، ت: محمد أحمد دهمان، في كتاب "في رحاب دمشق"، دار الفكر، دمشق،1981،ص86.

([62]) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج2- ق1/ص292.

([63]) F. Yahya: Inventaire archéologique des carvanserail de Damas,Thése dactylographiée, Aix –en –Provence, 1979, p. 249.

([64]) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج2- ق1/ص192 ؛ النعيمي، الدارس،ج2/ص131-132 ؛ ابن طولون، القلائد،ص104-105.

([65]) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج2- ق1/ص192 ؛ الاربلي، مدارس دمشق،ص79.

([66]) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة،،ج2-ق1/ص191-195.

([67]) شوقي شعث، حلب تاريخها ومعالمها التاريخية، مشورات جامعة حلب، حلب، 1991، ص65.

([68]) النعيمي، الدارس،ج1/ص208-213.

([69]) محمد كرد علي، خطط الشام، دمشق، المجمع العلمي العربي، 1927، ج6/ص81.

([70]) النعيمي، الدارس،ج1/ص209.

([71]) اكرم حسن العلبي، خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة على مدى الف عام،ط/1، دار الطباع، دمشق،1989م،ص125.

([72]) جرمانا : بالفتح وبين الالفين نون من نواحي غوطة دمشق، أبو عبد الله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت،ج2/ص129.

([73]) الدارس،ج1/ص227 ؛ تريفة ، اسهامات العلماء ،ص155 ؛ بدران ، منادمة، 106.

([74]) كرد، خطط، ج6/ص81-82.

([75]) أبو العباس احمد بن محمد ابن خلكان، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ت: إحسان عباس، دار صادر،بيروت،1968،ج4/ص120-121؛ ابن طولون، القلائد،ص236-238.

([76]) النعيمي، الدارس،ج2/ص63.

([77]) كرد، خطط، ج6/ص99.

([78]) النعيمي : الدارس،62/2 ؛ ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة،ج6/ص353.

([79]) العلبي، خطط، ص236.

([80]) ابن طولون، القلائد،ص236-240.

([81]) ابو شامة، الروضتين،ج3/ص243 ؛ ابن شداد، الاعلاق الخطيرة،ج2-ق1/ص205 ؛ الذهبي، العبر،ج4/ص245 ؛ ابن كثير، البداية والنهاية،ج12/ص317 - 318.

([82]) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة،ج2-ق1/ص205.

([83]) النعيمي، الدارس،ج1/ص279؛ تريفة ، إسهامات العلماء ،ص152-153.

([84]) أبو شامة، ذيل الروضتين،ص81 ؛ النعيمي، الدارس،ج2/ص278-279 ؛ تريفة ، اسهامات العلماء ،ص152-153.

([85]) النعيمي، الدارس،ج1/ص279.

([86]) النعيمي، الدارس،ج1/ص278 ؛ كرد، خطط، ج6/ص85-86.

([87]) ابن خلكان، وفيات الاعيان،315/1؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص283-284.

([88]) النعيمي، الدارس،ج1/ص283.

([89]) بدوي، الحياة العقلية، ص66.

([90]) محمد كرد، خطط،ج6/ص86.

([91]) الملك قطب الدين: وهو ايل غازي بن البي بن تمرتاش بن ايل غازي بن ارتق صاحب ماردين وكان موصوفا بالعدل والشجاعة توفي سنة 580هـ/1184م. الصفدي، الوافي بالوفيات،ج10/ص18.

([92]) ابن شداد ، الأعلاق،ج2-ق1/ص227 ؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص455.

([93]) وليد مصطفى خالد،خلفاء وملوك العصر الإسلامي، دار البشائر،دمشق، 2005،ص197.

([94]) النعيمي، الدارس،ج1/ص431-432 ؛ كرد، خطط،ج6/ص95.

([95]) النعيمي، الدارس،ج1/ص431-432.

([96]) الذهبي، العبر،ج5/ص164 ؛ الصفدي،الوافي بالوفيات،ج10/ص235 ؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص96-97.

([97]) كرد، خطط،ج6/ص76.

([98]) ابن شداد،الأعلاق،2-1/ص228 ؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص443 ؛ ابن طولون، القلائد،ص236-240.

([99]) ابن طولون، القلائد،ص234.

([100]) كرد علي، خطط الشام،ج6/ص96.

([101]) ابن شداد،الأعلاق،2-1/ص228.

([102]) ابن طولون، القلائد،ص233.

([103]) النعيمي،الدارس،ج2/ص87-88 ؛ الذهبي، تاريخ الإسلام،ج48/ص145؛ ابن طولون، القلائد،ص140-142.

([104]) ابن شداد،الأعلاق،ج2-ق1/ص223 ؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص464 ؛ ابن طولون، القلائد،ص217-219.

([105]) النعيمي، الدارس،ج1/ص464.

([106]) ابن شداد،الأعلاق،ج2-ق1/ص261-262 ؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص177-178.

([107]) النعيمي، الدارس،ج1/ص177-178.

([108]) ابن شداد،الأعلاق،2-1/ص244 ؛ النعيمي، الدارس،ج1/ص238.

([109]) النعيمي، الدارس،ج1/ص238.

([110]) ابن شداد، الأعلاق،ج1-ق1/ص108 ؛ ابن الشحنة، الدر المنتخب،ص113 ؛ كرد علي، خطط الشام،ج6/ص95.

([111]) الجاسر، مدارس،ص206-212.

([112]) المقريزي، الخطط، ج2/ص378؛ تريفة ، اسهامات العلماء ، ص153.

([113]) نفس المصدر.

([114]) اسهامات العلماء ، ص153.

([115]) المقريزي، الخطط،ج2/ص368.

المصادر الأولية

- ابن الأثير، ابو الحسن عز الدين (ت630هـ/1232م): الكامل في التاريخ، ت: عبد الله القاضي، ط/2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1415هـ.
- الاربلي، الحسن بن احمد بن زفر (ت726هـ/1325م) : مدارس دمشق ودور حديثها وخوانكها وربطها وجوامعها، ت: محمد أحمد دهمان، في كتاب "في رحاب دمشق" دار الفكر، دمشق،1981.
- البغدادي، أبو بكر احمد بن علي الخطيب (ت463هـ/1070م) : تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت،د.ت.
- ابن تغري بردي، ابو المحاسن جمال الدين يوسف (874هـ/1469) :النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، د.ت.
- ابن جبير، محمد بن احمد (ت 614هـ/ 1217م) :تذكرة بالاخبار عن اتفاقات الاسفار (المشهور برحلة ابن جبير)، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب، بيروت،د.ت.
- ابن حجر، شهاب الدين احمد بن علي العسقلاني (ت852هـ/1448م): الإصابة في تمييز الصحابة، ت: علي محمد البجاوي،ط1، دار الجيل،بيروت،1992.
- الحموي، أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله (ت 626هـ/ 1228م) :معجم البلدان، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت.
- الحنبلي، احمد بن ابراهيم (ت876هـ/1471م) : شفاء القلوب في مناقب بني ايوب، ت: ناظم رشيد، دار الحرية،بغداد، 1979.
- ابن خلكان، ابو العباس احمد بن محمد (ت 681هـ/ 1282م) : وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان، ت: احسان عباس، دار صادر،بيروت، 1968.
- الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ/ 1347م) :تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والاعلام، ت: عمر عبد السلام تدمرى، ط/1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1407هـ/1987م. سير اعلام النبلاء، ت: شعيب الأرناؤوط , محمد نعيم العرقسوسي، ط/9، مؤسسة الرسالة، بيروت،1413. العبر في خبر من غبر،، ت: صلاح الدين المنجد، ط/2، مطبعة حكومة الكويت، الكويت،1984. ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1995.
- الزبيدي، محمد مرتضى (ت1205هـ/ 1790م) :ترويج القلوب في ذكر الملوك بني ايوب، ت: صلاح الدين المنجد،د.م، دمشق، 1388هـ/1969م.
- السخاوي، محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر، (ت 902هـ/1496م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.د.ت.
- أبو شامة، أبو محمد شهاب الدين عبدالرحمن اسماعيل (ت 665هـ/ 1266م) : تراجم رجال القرنيين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، ت : محمد زاهد بن الحسن الكوثري، ط2، دار الجيل، بيروت، 1974. الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ت: إبراهيم الزيبق، ط/1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1418هـ/ 1997م.

- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي بن ابراهيم الحلبي (ت684هـ/1285م) :الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة،الجزء الاول – القسم الاول، ت: دومنيك سورديل، المعهد الفرنسي بدمشق،دمشق،1953م، الجزء الثاني – القسم الاول، ت: سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1956.
- ابن الشحنة، مجد الدين محمد بن محمود الحلبي (ت815هـ/1412م) : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، ت : عبد الله محمد الدرويش، د.ت.م.
- ابن الصابوني، جمال الدين ابي حامد محمد بن علي (ت 680هـ/1281م) : تكملة إكمال الأكمال في الأنساب والأسماء والألقاب، ت: مصطفى جواد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، 1377هـ/1957م.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك (ت 764هـ/ 1362م) :الوافي بالوفيات، ت: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ/2000م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد بن علي (ت953هـ/1546م) : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، ت : محمد احمد دهمان، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1980.
- ابن العديم، ابو القاسم كمال الدين عمر(ت660هـ/ 1261م) : زبدة الحلب في تاريخ حلب، ت: سامي الدهان، المطبعة الكاثوليكية،بيروت، 1968.
- ابن عساكر،علي بن حسن(ت 520هـ/1126م): تاريخ مدينة دمشق، ت : محب الدين ابي سعيد عمر بن العمري، دار الفكر،بيروت، 1995.
- ابن العماد، ابو الفلاح عبدالحي (ت 1098هـ/ 1678م) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ت: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناءوط، ط/1، دار بن كثير، دمشق، 1406هـ/1985م.
- ابن كثير، اسماعيل عمر (ت 774هـ/ 1337م) :البداية والنهاية: طبعة دار السعادة بمصر، د.ت.
- الكوفي، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة (ت235هـ/849م): المصنف في الأحاديث والآثار، ت: كمال يوسف الحوت، ط1، مكتبة الرشد، الرياض،1409.
- المقريزي، تقي الدين احمد بن علي (ت 845هـ/ 1441م) : السلوك لمعرفة دول الملوك، ت: محمد عبد القادر عطا، ط/1، دار الكتب العلمية : لبنان، بيروت، 1418هـ/1997م ؛ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار (المشهور بالخطط المقريزية)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، د.ت.
- المنذري، زكي الدين محمد بن عبد المنعم (ت656هـ/1258م) : زكي الدين ابو محمد المنذري: التكملة لوفيات النقلة، ت : بشار عواد معروف، ط3،مؤسسة الرسالة، بيروت، 1984.
- النعيمي، عبد القادر بن محمد (ت927هـ/1520م) : الدارس في تاريخ المدارس، ت: ابراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1410هـ/1989م.
- النووي، محي الدين بن شرف(ت 676هـ/1277م): هذيب الأسماء واللغات، ت: مكتب البحوث والدراسات، ط1، دار الفكر، بيروت،1996.

- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت 697هـ/ 1297م) : مفرج الكروب في اخبار بني ايوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار احياء التراث القديم، القاهرة،1957.
- اليافعي، ابو محمد عبدالله بن سعد (ت 768هـ/ 1366م) : المرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،1413هـ،1993م.

- المراجع الحديثة :

- اسماعيل، محمود: تاريخ الحضارة العربية الاسلامية،ط2، كتبة الفلاح، الكويت، 1990.
- بدران، عبد القادر : منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، ت: زهير الشاويش، ط2، المكتب الإسلامي، بيروت،1985م.
- بدوي، احمد احمد : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار النهضة المصرية للطبع والنشر، القاهرة، د.ت.
- البرزنجي ، تريفة احمد عثمان : اسهامات العلماء الاكراد في بناء الحضارة الاسلامية ، ط1، دار الكتب العلمية،بيروت ، 2010.
- بيطار، امينة: التعليم في الشام في العصر الايوبي، مجلة تاريخ العرب والعالم :س6، ع1984،7.
- الجاسر، لمياء : مدارس حلب الاثرية تاريخها وعمارتها، ط1، سوريا،1421هـ/2000م.
- حسن، ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام السياسي، ط14، مكتبة النهضة، القاهرة، 1996.
- حلمي، محمد: الحياة العلمية في مصر والشام 520-648هـ/1127-1250م، المجلة التاريخية المصرية، القاهرة، مج1958،7.
- خالد، وليد مصطفى: خلفاء وملوك العصر الإسلامي، دار البشائر،دمشق، 2005.
- الخربوطلي، علي حسن : الحضارة العربية الاسلامية،ط1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح: الايوبيون والمماليك في مصر والشام،ط1،دار النهضة العلمية، القاهرة،1996.
- العبادي، احمد مختار: في تاريخ الايوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، 1995.
- علي، محمد كرد : خطط الشام، دمشق، المجمع العلمي العربي، 1927.
- العلبي، اكرم حسن : خطط دمشق دراسة تاريخية شاملة على مدى الف عام،ط/1،دار الطباع، دمشق،1410هـ/1989م.
- الزركلي، خير الدين: الاعلام، ط3، بيروت، د.ن، 1969.
- شعث، شوقي: حلب تاريخها ومعالمها التاريخية، مشورات جامعة حلب، حلب،1991.
- ضيف، شوقي: تاريخ الادب العربي العصر العباسي الثاني،ط2، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- الطباخ ، راغب: اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ط2، دار القلم العربي، حلب ،1989
- كحالة، عمر رضا: أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- الكيلاني، ماجد عرسان: هكذا ظهر جيل صلاح الدين،ط/3،دار القلم للنشر والتوزيع،دبي، 2002م.
- مبيض، عامر رشيد : حلب ترحب بكم جولة اثرية، دار القلم العربي، حلب، 2006.
- عبد المنعم، حمدي: دراسات في تاريخ الايوبيين والمماليك،ط1،دار المعرفة الجامعية، القاهرة،2000.

-F. Yahya: Inventaire archéologique des carvanserail de Damas,Thése dactylographiée, Aix –en Provence, 1979. وفي مصر أسهمت المرأة في المجال المعماري في العصر الأيوبي .